الإسلام والشعر

دراسة موضوعية

د. إخلاص فخري عمارة

مكتبة الآداب
٤٢ سيدان الأزبكية - ت: ٣٩٠٠٨٦٨

Bibliotheca Alexandrina
0122967

الإسلام والشعر

دراسة موضوعية

د. إخلاص فخري عمارة

كلية الألسن — جامعة عين شمس

مكتبة الآداب

٤٢ سيدان الأوبرا - القاهرة

ت: ٣٩٠٠٨٦٨ - ٣٩١٩٣٧٧

إهـــداء

إلى والدى يرحمه الله

فكثيرا ما عارض اتجاهى لدراسة الأدب ، وتمنّى لو تخصصت فى أحد علوم الدين .

وعزمت أن أرضيه ما أمكننى ، حين أحاول الإفادة من دراسة الأدب لحماية اللغة ، والذود عن الدين ، وهذه إحدى محاولاتى ، تقرّبى لله ، وإرضاء لأبى .

د . إخلاص نظمى عمارة

مقدمة

حين هممت بتناول موضوع الإسلام والشعر، كنت أعلم أن عشرات من الباحثين ومؤرخي الأدب قد سبقوني إلى تناوله، واطلعت على وجهات نظرهم في أغلب المؤلفات، وأفدت منها، ومع ذلك قويت رغبتي في معاودة النظر لهذه القضية وكلي ثقة في أن أقدم جديدا، وأحسبني فعلت.

لقد جمعت كل الآيات التي تحدثت عن الشعر والشعراء في القرآن الكريم، وفسرتها واستخلصت ما عالجته من نقاط، مستعينة بآراء السابقين وشروحهم.

ثم عرضت أغلب ما أثر عن الرسول - ﷺ - من قول أو فعل يتصل بالقضية وقسمته إلى أنواع واجتهدت في فهم الموقف الحقيقي من خلال التعارض والتفق من الأحاديث والمواقف النبوية.

وأكملت بذكر أمثلة من الأقوال والأفعال المروية عن صحابة رسول الله - عليه السلام - وخلفائه الراشدين - رضوان الله عليهم جميعا.

وبعد ذلك استعرضت آراء المؤيدين والمعارضين في مناقشة تفصيلية منسقة.

وخلال المناقشة أسهبت في مواضع لم يوفها الآخرون حقها، ورددت على شبهات لم يتوقفوا أمامها، وصححت مفاهيم وأفكاراً غابت عنهم، أو تجاوزوها.

ذلك هو الجانب النظرى فى القضية ، لكنى أضفت لها جانبا تطبيقيا، كى أبرهن على ما توصلت إليه من نتائج . لقد انتهيت فى المجال النظرى إلى أن للاسلام أثر إيجابى محمود على الشعر العربى ، وأنه ازدهر وتطور فى ظل الإسلام فاتسعت مجالاته وتعددت أغراضه ، كما ارتقت أساليبه ، حين تغيرت - بفضل القرآن والحديث - مقاييس البلاغة ، وشروط البيان والفصاحة .

وإثباتا لما ذهبت إليه قدمت عددا من النماذج الشعرية فى عهد النبوة والراشدين ، وعرضتها على مقاييس النقد والدراسة الفنية ، كى أكشف ما طرأ على الشعر الإسلامى من تطور وتجدد وحيوية .

إنى لأرجو أن أكون قد حققت بعض ما تطلعت إليه، حين عاودت الكتابة فى موضوع سبقنى إليه الكثيرون .

والله الهادى سواء السبيل .

د . إخلاص نظرى عمارة

روكسى ت : ٢٥٦٢٢١٥

تهم باطلة

دأب المغرضون من أعداء الإسلام والعروبة (١) على النيل منهما بشتى السبل وكافة الوسائل ، فإن أعياهم العداء السافر والحرب الضروس ، لجأوا إلى مقاتل خفية وإلى طرق ملتوية ، فهذا إغراء بما عندهم من بضاعة مادية ومعنوية حتى ينجذب إليها المسلمون والعرب ويعرضون عما لديهم ، ثم ينكرونه ويتجاهلونه ، ومن ثم ينسونه فيتغربون ، ويتشتتون ويضيعون بدداً .

---

(١) المغرضون يتمثلون في : المشركين والمنافقين ، ثم الشعوبيين ، فالاستعمار والمستشرقين ، ثم من سار في ركابهم عن جهل أو عن سذاجة من العرب والمسلمين الذين استغربوا لأنهم تلقوا علومهم وثقافتهم في الغرب فتشربوا روحه وفكره ، فضعفت عروبتهم ووهن إسلامهم .

وأنا لا أفصل بين العروبة والإسلام ، فكل مسلم عربي ، لأنه كي يحسن إسلامه لا بد أن يعرف العربية ـ لغة القرآن والحديث ـ فإذا عرفها تعرب لسانه وفكره ، وبالتالي تعربه وجدانه وهواه فصار عربياً وإن لم ينتسب للأصول العربية من جهة الجنس .

أما من يخشون الجمع بين العروبة والإسلام ، لوجود عرب غير مسلمين ، فليطمئنوا لأننا نرحب بغير المسلمين بيننا ما داموا عربا بالفكر والقلب ، وكل ما قصدته هو أن دائرة العروبة أوسع من دائرة الإسلام ، فكل مسلم عربي وإن لم يكن بالضرورة كل عربي مسلم .

To: www.al-mostafa.com

وهـذا انتقاص مما عند المسلمين والعرب من بضاعة معنوية ومادية وازراء بها وتحقير لها ، حتى يعافها أصحابها ويتخلوا عنها ، فيفقدوا هويتهم وأصالتهم .

وقد تكون الوسيلة هي إتيان العرب والمسلمين من حيث لا يحتسبون وطعنهم في ظهورهم وهم لا يشعرون ، وذلك ما تمثل في إبداء الآراء وعرض وجهات النظر حول أدبهم وحضارتهم وتراثهم ، فإذا كان الشعر مفخرة العرب ونتاجهم الأول ومجال نبوغهم ، فإن هناك شكوكا حول نشأته البعيدة ، وتأثره بأشعار الأمم الأخرى ، ثم هناك ريب ، بل تأكيدات حول انتكاسته وضعفه بعد ظهور الإسلام لأنه عاداه وحقره وهاجم مبدعيه .

وإذا كانت الثقافة العربية الإسلامية قد بلغت ذروة لم تبلغها ثقافة أخرى في العصر الإسلامي أيام بني أمية والعباسيين ، فقد انهارت وتراجعت في العصر التالي أيام الدويلات والمماليك ، ثم انطمست تماما وخمد كل بصيص لها في ظل الخلافة التركية ، وإذا كانت الحضارة العربية الإسلامية قد تميزت بسمات فريدة وتألقت بخصائص يعز على المغرضين فهمها واستيعابها ، فليكن غمزهـا من حيث كونهـا جامدة متخلفة ، تتنافى مع التقدم وتخاصم الحداثة .

وإذا كانت اللغة العربية هي جوهر العروبة ورابطة الإسلام ، وهي النسب الحقيقي لكل عربي ومسلم ، هي لغة القرآن وحافظة الدين ، وهي أعرق اللغات الحية ، وأعظمها ثراء ، وأفصحها بيانا ، وهي الوحيدة

التى قاومت كل عوامل الفناء ، وتطورت مع الزمن دون أن تفقد جوهرها أو تتغير خصائصها ـ إذا كانت اللغة العربية كذلك ـ فليكن البحث عن محاولات خبيثة لإضعافها تدريجيا حتى يتم القضاء عليها ، لتكن الدعوة إلى كتابتها بالحروف اللاتينية مرة ، والمناداة بكتابتها كما تنطق مرة أخرى(١) ولتكن الثالثة ـ القاصمة ـ هى الدعاية لتوسيع نفوذ اللهجات المحلية ، وكتابة الأدب بها ، حتى تسود لهجة كل إقليم فينعدم التفاهم ويتم الانفصال ، وتموت الرابطة التى تجمع المسلمين والعرب على امتداد أوطانهم وأصقاعها .

وأقسى وأوجع ما فى تلك المحاولات أن القائمين بها ليسوا أجانب وأعداء فقط ، ولكن يشاركهم ويسوءهم معهم للأسف وللخجل عرب ومسلمون .

وفى تصورى أن من أوجب واجبات المثقف المسلم ، التصدى لتلك المحاولات ، وإماطة اللثام عنها وكشف أهدافها الأصلية ، وهذا التصدى لا يقتصر على مقالات ودراسات صريحة مباشرة تحبطها ، ولكنه يجب أن يتم فى كل لحظة ، وعلى كافة المستويات وفى شتى المجالات ، ولا إخال مجال الأدب إلا أوسع المجالات وأهمها ، لذلك تأتى الصفحات التالية لمعالجة زعم وادعاء ـ بل الأحرى أن يقال افتراء ـ شارك فيه الكثيرون عن سذاجة وعدم تبصر ، أو عن سوء قصد وخبث نية ، ذلك الزعم

---

(١) صاحب الدعوة الأولى هو عبد العزيز فهمى وبعده سلامه موسى ، وصاحب الثانية هو طه حسين الذى كتب اسمه أيامها هكذا : طاها .

الذى نال من الشعر العربى فى عصر النبوة والراشدين بترديد مقولات خاطئة ، مثل عداوة الإسلام للشعر ، وانشغال المسلمين عن نظمه وروايته ، وقلة عدد الشعراء ، وضعف المستوى الفنى . وليس فى مناقشة هذه الادعاءات ما ينتقص من الاسلام أو يضعه موضع الاتهام الذى يتطلب دفاعا وتفنيدا وتبرئة[1]

بل هو تبديد للغبار الذى قد يحجب الرؤية الصحيحة عن الناشئة ، ودحض لمزاعم قد تكدر نصاعة الحق ولو للحظات .

* * *

(١) قراءة فى الأدب الاسلامى والأموى : د . محمد عبد العزيز الوافى ص ١١ .

أولا : موقف القرآن الكريم

خير ما نستهل به حديثنا فى قضية الإسلام والشعر هو استعراض الآيات التى حوت لفظ شعر أو شاعر أو شعراء ، لأن القرآن دستور الإسلام ومنبع الأحكام ، ومنه ينهل الجميع ويستمدون .

لقد وردت الألفاظ الثلاثة فى ستة مواضع عبر كتاب الله الكريم ، وهى على الترتيب :

١ — قال تعالى : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ (١) .

٢ — ويقول عز شأنه ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ (٢) .

٣ — كما قال جلت حكمته ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ (٣) .

٤ — وقال — وهو أصدق القائلين — ﴿ ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ، بل جاء بالحق وصدّق المرسلين ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ٥ (٢) الشعراء ، آيات ٢٢٤/٢٢٧
(٣) سورة يس آية ٦٩ (٤) سورة الصافات ، آية ٣٦:٣٧

٥ — ويقول سبحانه ﴿ فذكّر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ﴾(١) .

٦ — وقال الحق — تبارك وتعالى ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون، إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين ﴾(٢) .

وحين نتدبر معاني الآيات الكريمة فسنجدها تتجه إلى ثلاثة اتجاهات ، أو تتعرض لثلاث قضايا هي :

١ — اتهام الكفار للرسول — ﷺ — بأنه شاعر ، ونفي القرآن لهذه التهمة الباطلة .

٢ — ادعاء الكفار والمشركين أن القرآن العظيم شعر أو من كلام الشعراء ، ودفع الآيات البينات لهذا الادعاء .

٣ — أما القضية الثالثة التي تتناولها الآيات فهي حديث عن الشعراء وسلوكهم ، فتقسمهم إلى فئتين بحسب سلوك كل فئة ، ثم تحدد مصير المشركين الظالمين .

١ — القضية الأولى : نفي صفة الشاعرية عن الرسول — ﷺ — فلا هو شاعر يمتلك موهبة الشعر ، ولا هو قد تعلم وأجاد أدوات الشعر

---

(١) الطور : آية ٢٩/٣٠

(٢) الحاقة : آيات ٣٨/٤٣

وعلومه . وقد تكررت مناقشة هذه القضية فى عدة آيات هى قوله سبحانه :

(١) ﴿ بل هو شاعر . . ﴾ الأنبياء ، آية ٥

(٢) ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له ﴾ يس ، آية ٦٩

(٣) ﴿ ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ الصافات آية ٣٦

(٤) ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ الطور ، آية ٣٠

لقد بهت الكافرون حين واجههم الرسول - صلوات الله وسلامه عليه بالقرآن ، كلام إلهى لا يأتيه الباطل ، ولا يدانيه فى البلاغة والبيان أى كلام آخر ، وأسقط فى يد المكابرين لأنهم لم يجدوا ما يردّون به عليه من منطق سليم وحجة واضحة ، فليس إلا العناد والمكابرة ، والانحراف إلى قضايا فرعية ، وادعاءات كاذبة ، واتهموا الرسول - وهو الصادق الأمين - بأنه شاعر ، مثلما اتهموه بأنه ساحر ، أو كاهن ، أو مجنون ، أو يتلقى عن الشياطين ، أو يعرف أساطير عن الأمم الغابرة فيحكيها ، أكاذيب وافتراءات يتصدى لها القرآن العظيم بآياته البينات فيفندها واحدة بعد أخرى ، نافيا تلك الصفات التى يحاول المشركون إلصاقها بالرسول الكريم بغيا وعدوانا .

ولو رجعنا للآية رقم واحد - وهى من سورة الأنبياء - لوجدنا قبلها آيات كثيرة تحكى إعراض الكفار عن ذكر الله ، وإصرارهم على رفض ما يأتيهم به الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - لأنه - كما يدّعون - بشر مثلهم ، ولا بد أن القرآن - حسب ظنهم سحر أو شعر أو خيالات نائم ، يقول - جلت حكمته -

﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ، لاهية قلوبهم وأسرّوا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ، قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم، بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ .

أما الآية رقم ثلاثة فهي نفي صريح لمعرفة الرسول الكريم بفن الشعر وأدواته ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ ثم تأكيد جازم بأن ما يأتي به هو قرآن يبين الحق ، ويهدي إلى سواء السبيل ليذكر أولوا الألباب، وقد استخدم أسلوب الحصر فنفى أن يكون أي شيء مما عرفه البشر ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾

وفي الآيات رقم خمسة يدعي الكفار والمشركون على الرسول عليه السلام ، صفة الجنون زيادة على الشاعرية ويعود القرآن من جديد إلى نفي الادعاء بالمنطق الواضح والحجة البينة ﴿ بل جاء بالحق وصدّق المرسلين ﴾ ثم تتوالى التهم فنجد الكهانة بالإضافة إلى الشاعرية والجنون ، ويأتي النفي صريحا قاطعا ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ .

ولا تتوقف الافتراءات بل تزداد ، فيكون السحر والكذب : ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾[1] ولم يكن كفار مكة ومشركو قريش هم أول من افترى على الرسل تلك

---

(١) سورة ص، آية ٤

الصفات ، لقد حكى الله جل شأنه عن تكذيب الكفار لأنبيائهم منذ إبراهيم وموسى وصالح ونوح - عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾(١) .

إن الجوهر فى هذا النفى ، والهدف الأسمى منه هو إثبات نبوة محمد عليه السلام ، وكونه رسولا من عند الله ، فلا هو شاعر ولا ساحر ، وليس بكاهن ولا مجنون ، إنه رسول الله ، وهذا التأكيد على نفى جميع الصفات غير صفة النبوة والرسالة هو فى نفس الوقت إثبات للوحى ، وأن ما جاء به قرآن تلقاه عن ربه بطريق جبريل عليه السلام .

فليس فى نفى الشاعرية غض من شأن الشعر ، أو تقليل لقيمة الشعراء ، فلقد كان ، عليه سلام الله أميا ، ومع ذلك رفع الإسلام العلم والعلماء إلى أعلى الدرجات .

وقد فسر « ابن رشيق » الآية قائلا ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له ﴾ معناها : ما الذى علمناه شعرا ، وما ينبغى له أن يبلغ عنا شعرا . ولو أن كون النبى ﷺ غير شاعر غض من الشعر ، لكانت أمسيته غضا من الكتابة ،(٢) ولو تروّى المشركون قليلا لما اندفعوا إلى وصف النبى الكريم بالشاعرية ، فهو لم يؤثر عنه نظم الشعر أبدا قبل البعثة أو بعدها ،

---

(١) سورة الذاريات ، آية ٥٢ .

(٢) العمدة لابن رشيق : ج ١ ص ٣١ من قراءة فى الأدب الاسلامى والأموى : د . عبد العزيز الموافى ص ٧

كان يسمعه فقط ولكنه لا ينشده ، وحين يريد الاستشهاد بشيء منه ، كان يطلب من أحد الصحابة قوله ، أو ينشده بعد تغيير ترتيب الجمل والكلمات حتى يختل وزنه ويفقد خاصيه الشاعرية .

وقد حاول بعض الدارسين تقصى الحكمة الإلهية فى حفظ الرسول منزّهها عن قول الشعر ، فقالوا إنه بعث بين قوم يفخرون بروعة البيان وسحر الشعر ويزهون بالبلاغة ، وكانت معجزة الرسول وبرهان رسالته ـ القرآن ـ معجزة بيان ساحر وبلاغة رائعة ، فلو كان الرسول ينظم الشعر لاختلط نظمه مع القرآن ، والتبس على الناس .

وفى رأيى أن هذا غير لازم لسببين : أولهما أن القرآن لون من البيان يخالف الشعر تماما ، فلن يختلط به ولن يلتبس على قوم تمرسوا قروناً بالشعر وفنونه كعرب الجزيرة .

وثانيهما : أن الله تعالى قد تعهد بحفظ القرآن من التحريف والتزييف ، ومن الخلط والالتباس ﴿ إنّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (١) وكان نزول القرآن بالنص (٢) ومنجما ، وتحفيظ الرسول إياه ، ومراجعته فيه مرة بعد أخرى وتوجيه الله له بالتريث والأناة : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع

---

(١) سورة الحجر ، آية ٩ (٢) كانت الكتب الأخرى تنزل بالمعنى الذى تتعدد صياغاته فيدخله التحريف والادعاء .

قرآنه ، ثم إن علينا بيانه ﴾[1] .

وكذلك ذهب البعض إلى أن حكمة نفى الشاعرية عن الرسول تكمن فى أنه لو نظمه لوجب تفوقه على الجميع لتكون آية ، ولن يكون له التفوق فى نظرهم إلا اذا سار على مقاييسهم فى الشعر، من هجاء مقذع ، وفخر كاذب وغزل جارح ، وحديث عن الخمر والميسر، وأوهام وخيالات مضللة ، وكل ذلك يتعارض مع طريق النبوة ومبادىء الإسلام، ولو كان الرسول شاعراً لظن الكفار أن بلاغة حجته وجوامع كلمه تأتى له من الشعر وتأثيره ، وسوف يدعون أن بلاغة القرآن وإعجازه البيانى هو من وحى الشياطين الذين يوحون للشعراء أيضاً ، وقد كان نفى الشاعرية عنه كذلك دحضا للظن بأن رسالته خيالات ورؤى ، وأن القرآن شعر من نوع جديد ، وكان نفى الشاعرية عن الرسول ضرورياً لما عرف عن بعض الشعراء من سلوك شائن ، فلا يصح أن يتصف الرسول بصفة تضعه موضع ريبة واتهام .

والمهم فى كل ذلك أن النفى لا يتوجه إلى الشعر فى ذاته ، ولكن هدفه تنزيه الرسول عن كونه شاعرا ، لأن الشعر يقوم على التخيّل والوهم والمبالغة ، بينما يقوم منهج الرسالة على اليقين وقوة الإقناع ، ووضوح المنطق ، ونصاعة الحُجّة ، فمنهج الشعر يختلف ويتعارض مع منهج الرسالة بصرف النظر عن اتصافه بالحسن أو القبح .

---

(١) سورة القيامة آية ١٦ ـ ١٩

٢ — القضية الثانية : مناقشة الادعاء بأن القرآن شعر . ومن الواضح ارتباطها بالسابقة وتداخلها فيها ، إذ من المنطق أنه ما دام الرسول الكريم ليس شاعراً ، فإن القرآن ليس شعراً ، وبتعبير آخر ، ليس القرآن شعرا ولا يشبه الشعر، لأن النبي الذي بلّغه عن ربه لم يكن ينظم الشعر ، ولا يعرف أساليبه وفنونه .

وقد وردت هذه القضية واضحة بيّنة في الآيات رقم (٦) ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ، إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين﴾ .

على أن الآيات رقم (١) تتناول القضية أيضاً في قوله تعالى ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه ﴾ ثم يؤكد سبحانه ﴿ بل جاء بالحق ﴾ .

لقد كان الهدف من نفي الشاعرية عن الرسول الكريم هو إثبات نبوته ، وتلقيه الوحي عن ربه ليبلغه إلى أمته ، ثم إلى البشرية كافة ، وهذا الوحي هو القرآن الكريم ـ كلام الله ـ نقله جبريل ـ عليه السلام ـ إلى محمد ﷺ فهو ليس تخيلات وأوهام نائم ، كما ادّعوا في الآيات رقم (١) ولا هو قول شاعر أو كاهن كزعمهم في الآيات رقم (٦) ، وهو كذلك ليس سحراً أو أساطير كما تخرصوا في آيات أخر ، ولكنه الحق الذي يتفق مع ما جاء به الرسل السابقون حسب ما تؤكد الآيات رقم (٤) ، ثم هو قول رسول كريم ، مُنزل عليه من رب العالمين كما تقطع الآيات رقم (٦). وتنزيه القرآن عن أن يكون شعرا غايته إثبات أنه كلام الله فقط ، ولم

يكن قصده التهوين من قيمة الشعر ، والأمر فى ذلك مثله مثل تنزيه القرآن الكريم عن كونه سحرا ﴿ وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا الا سحر مبين ﴾ (١) وكذلك نفى ما ادعوه من أن القرآن قول من الشيطان ﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ (٢)

وادعى الكفار فيما ادعوه أن القرآن من الأساطير ﴿ واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾ (٣) .

ولا مراء فى أن هدف الكفار والمشركين من ادعاءاتهم ، هو تكذيب الرسول ـ ﷺ ورفض نبوته ، فكان المنطق هو رد القرآن الكريم بتفنيد افترائهم وإثبات نبوة محمد الأمين ، وصدقه فيما بلغه عن ربه .

وحول ادعاء الكفار بأن القرآن شعر ، يبدى باحث فاضل ملاحظة تقول « من الغريب أن الرسول الكريم الذى لم يكن يعلم الشعر ، كان يدرك أن ما يوحى إليه ليس شعراً ، على حين أن أهل مكة الذين يفترض أنهم كانوا يعرفون الشعر حين يسمعونه أو يروونه ، ظنوا بأن هذا الوحى كان شعراً ، وكان المتوقع عكس ذلك ـ انظر دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى ، ترجمة د . عبد الرحمن بدوى (٤) ونرد على تساؤله فى نقطتين :

---

(١) سورة سبأ ، آية ٤٣ (٢) سورة التكوير ، آية ٢

(٣) سورة النحل ، آية ٢٤ (٤) قراءة فى الأدب الاسلامى والأموى ، د . عبد العزيز الموافى ، ص ٦ الهامش .

(١) لا أظن أنه من الصواب القول عن عربي عاش في مكة أيام الجاهلية « لم يعلم الشعر » إلى الدرجة التي لا تمكنه من التمييز بينه وبين فنون القول الأخرى ، والرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد سمع الشعر طوال حياته ، وكان يعجب بالجيد منه ويستنشده ، ويفاضل بين الشعراء . حقيقة أن المفاضلة قد تكون على أسس خلقية ودينية غالبا ، لكنها لا تخلو عن معايير فنية أيضا بدليل أنه حين أراد اختيار شاعر مسلم للرد على هجاء قريش له ، استمع إلى « عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت » ، وفضل اختيار حسان رغم تساوي الثلاثة في اعتناق الإسلام ، والإيمان بقيمه والاستعداد للدفاع عنه وعن رسوله عليه السلام ، فلا شك أنه وجد في حسان مقدرة فنية ، وتمكناً من أدوات الشعر ، يؤهله للنجاح في أداء المهمة أكثر من رفيقيه ، أما قوله تعالى ﴿وما علمناه الشعر﴾ فلا يعني بالتأكيد ـ جهل الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بالتفريق بين الشعر وغيره ، وإنما يعني أن الرسول لا ينظم الشعر ولا يمتلك الموهبة .

(٢) وكون الكفار يظنون أن القرآن شعر ، تعبير غير دقيق ؛ لأنهم في قرارة نفوسهم متأكدون أن القرآن ليس شعرا ، وإنما أرادوا بهذا الادعاء إثارة غبار الأكاذيب حول النبي الكريم ، وحول القرآن مكابرة وعنادا ، وشغلا للناس عن قضية الإيمان بالدين الجديد بقضايا فرعية ، فهم لا يظنون ولا يلتبس عليهم أمر القرآن وكونه ليس شعرا ، ولكنهم يدعون ويكذبون ، بدليل ادعائهم بأنه سحر وأساطير وخيالات نائم ،

وهم حين أطلقوا تلك الافتراءات كانوا قد خططوا لها وتشاوروا فيها ، لقد حكى أنهم اجتمعوا يتداولون أمرهم حول كيفية مواجهة الرسول الكريم ، وتكذيبه ، لصرف الناس عنه وعن رسالته ، فقالوا تتهمه بالكهانة ، فرد الوليد بن المغيرة قائلا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته .

قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله : رجزه وهزجه وقريضه ، ومقبوضه وبسيطه ، فما هو بالشعر ،[1] ومن ذلك يتبين أن كفار مكة ومشركيها لم يلتبس عليهم الأمر ولا ظنوا أن القرآن شعر ، ولكنه العناد الذي يورث الكفر ، والمكابرة التي تعمي عن الحق ، والجدل الأجوف لا يبغي معرفة الحقيقة أبدا ، وإنما يهدف إلى التضليل والبلبلة .

وفي مجال البلبلة وإثارة الغبار ، ربما تدخل قضية فرعية أخرى هي وجود آيات من الذكر الحكيم على أوزان شعرية معروفة[2] وربما اجتمع إلى الوزن اتفاق الفواصل في آيات كثيرة ، وهو ما يشبه القافية في الشعر ومن تلك الآيات قوله تعالى :

---

(١) نحو أدب اسلامي معاصر : أسامة يوسف شهاب ص ١١٦

(٢) دراسات في أدب ونصوص العصر الاسلامي : د . محمد عبد القادر أحمد ص ٤٦/٤٧

﴿ إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾[1]
﴿ هيهات هيهات لما توعدون ﴾[2] .
﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾[3] .
﴿ ودانية عليهم ظلالها ، وذللت قطوفها تذليلا ﴾[4] .
﴿ والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ﴾[5] .
﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾[6] .

وآيات أخرى من هذا النوع ، وقد رد الجاحظ على من يتوهم وجود الشعر في القرآن قائلا « اعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم ، لوجدت فيها مثل : مستفعلن فاعلن كثيرا ، وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعرا . ولو أن رجلا من الباعة صاح : من يشترى باذنجان . لقد تكلم بكلام في وزن : مستفعلن مفعولان ، فكيف يكون هذا شعرا وصاحبه لم يتصد إلى الشعر ؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام . وإذا جاء المقدار الذي يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها كان ذلك شعرا »[7] .

ولا ريب أن اشتراك باحثين عرب في مناقشة هذه النقطة قد يوقع البعض في الخطأ ، ولكننا يجب أن نفرق بين الهدف التعليمي للباحثين

---

(١) سورة الأنفال ، آية ٣٨ (٢) المؤمنون ، آية ٣٦
(٣) الصافات ، آيه ٦١ (٤) الإنسان ، آية ١٤
(٥) العاديات ، آية ١ ، ٢ (٦) المسد ، آية ١
(٧) البيان والتبيين : ج ١ ص ١٥٤ دار صعب ، بيروت .

العرب ، وهو الذى يسعى إلى رصد الظواهر الفنية فى القرآن الكريم ، وإثبات أنه معجز ، ورغم وجود آيات على بعض الأوزان الشعرية ، إلا أنها ليست شعرا ، وهى تسمو وتتنزه عنه ، والشعر لا يشابهها ولا يدانيها ، فى حين أراد المنافقون والمستشرقون من إثارة تلك النقطة إحياء زعم مشركى مكة وكفارها بأن القرآن ليس وحياً من الله ، وأنه من صنع بشر ، وفيه ما يشبه الشعر وعائله .

والأقرب للهدى أن ندع مثل هذه المناقشات حتى لا نقع فى الخطأ .

٣ ـــ القضية الثالثة : حديث عن الشعراء ، وهو ما ورد فى قوله تعالى ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ إن الآيات تحدثت عن فريقين من الشعراء : فريق مذموم مغضوب عليه ، لأسباب تتعلق بسلوكه ، وأسلوب حياته ، ولا تتعلق أبدا بموهبة الشعر ونظمه .

وفريق مرضى عنه محمود عند ربه لأسباب تتصل هى الأخرى بالتصرفات ومنهاج الحياة ولا تمس الشاعرية من قريب أو بعيد . وقد ذكر صاحب الكشاف(١) فى أسباب نزول هذه الآيات ، أنها نزلت فى الشعراء المشركين : عبد الله بن أبى وهب ومسافع بن عبد مناف

(١) تفسير الكشاف ، جـ ٢ ص ٤٤٠ ، من « نحو أدب إسلامى معاصر » ص ١١٧

وأبي عزة الجمحي وأمية بن أبي الصلت ، قالوا: نحن نقول مثل قول محمد ، وكانوا يهجونه، ويجتمع إليهم الأعراب يستمعون إلى أشعارهم وأهاجيهم ، ولذلك فهم الغاوون الذين يتبعونهم ، كما يحكي ابن كثير أنه بعد نزول هذه الآيات توجه حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى الرسول وهم يبكون ، قالوا قد علم الله حين أنزل هـــذه الآية أننا شعراء ، فتلا النبي قوله تعالى ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وقال : أنتم ، ثم قوله تعالى ﴿ وذكروا الله كثيرا ﴾ .

قال: أنتم ، ثم أكمل : ﴿وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾ وقال : أنتم ».

ويعقب أبو هلال العسكري على هذه الآيات قائلا « واستثناء الله عز وجل في أمر الشعراء يدل على أن المذموم من الشعر إنما هو المعدول من جهة الصواب إلى الخطأ ، والمسروق من جهة الإنصاف والعدل إلى الظلم والجور ، وإذا ارتفعت هذه الصفات ارتفع الذم ، ولو كان الذم لازما لكونه شعرا لما جاز أن يزول على أي حال من الأحوال »(١) .

وبالرغم من وضوح الآيات في نصها على المذموم من الشعراء واستثنائها لغيرهم ، لكن البعض قد سارع إلى تصور خاطيء يجعل القرآن معاديا للشعر والشعراء ، ولذلك يشير إليهم « ابن رشيق » قائلا « فأما احتجاج من لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى

---

(١) الصناعتين ص ١٣٢ ، نحو أدب إسلامي معاصر ص ١١٠

﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون .. ﴾ الآية فهو غلط وسوء تأمل ، لأن المقصود بهذا النص شعراء المشركين الذين تناولوا الرسول — ﷺ — بالهجاء ومسّوه بالأذى ، فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل في شيء من ذلك ، ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل ونبه عليهم فقال ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ يريد شعراء النبي ﷺ ، ينتصرون له ويجيبون المشركين عنه »[1] .

ومن عجب أن يقع في هذا الغلط وسوء التأمل مفكر مثل الجاحظ ، له ذكاؤه وبصيرته ، وقدرته على الفهم ، يقول « وقال الله تعالى وقوله الحق ﴿ وما علمناه الشعر ﴾ ثم قال ﴿ وما ينبغي له ﴾ ثم قال ﴿ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ فعمّ ولم يخص ، وأطلق ولم يقيد ، فمن الخصال التي ذمهم بها تكلف الصنعة والخروج إلى المباهاة ، والتشاغل عن كثير من الطاعة ومناسبة أصحاب التشديق »[2] وواصل الجاحظ كلامه مستطردا مطيلا دون إشارة إلى من استثناهم الله عز وجل في الآية من الشعراء المؤمنين الصالحين والمرضي عنهم ، مما يجعل القارىء يتصور أن الذم للشعراء جميعا ، وهو ما يتعارض وباقي الآية . ولكن الصواب أن نفهم الآية على وجهها الصحيح ، والذي يقسم الشعراء إلى طائفتين :

---

(١) العمدة ، ج ١ ص ٣١ ، قراءة في الأدب الاسلامي والأموي ص ٨

(٢) البيان والتبيين ج ٢ ص ٥٧٢

طائفة المشركين الذين صدوا عن دين الله ، وحاربوا النبي وآذوا المسلمين ، فهاموا بوادي الضلالة واتبعوا سبيل الغواية ، أولئك ساءت عاقبتهم ، وإلى جهنم يحشرون .

والطائفة الثانية هم الشعراء المؤمنون الصالحون الذاكرون الله كثيرا ، الذين نصروا الله ورسوله ، وانتصروا لأنفسهم ممن ظلمهم ، أولئك مرضي عنهم ويغفر الله لهم وبالجنة يبشرون . وهذه هي الآية الوحيدة التي تتحدث عن الشعراء وسلوكهم ، وهي تعالج الأمر من زاوية إنسانية بحتة : كل إنسان ـ شاعر أو غير شاعر ـ إن آمن وعمل صالحا ونصر الله ورسوله ، فله الجنة .

وكل إنسان ـ شاعر أو غير شاعر ـ إذا كفر وصد عن سبيل الله وتعرض بالأذى للرسول والمسلمين ، فله النار وبئس المصير .

خلاصة القول إذن في موقف القرآن الكريم من الشعر والشعراء .

١ ـ لم ينزل في القرآن تحريم واضح صريح للشعر ، ولا ذم له من حيث كونه فنا تعبيريا جميلا ، ولكنه يذم إذا حاد عن طريق الخير والحق ، وكذلك كل شيء .

٢ ـ لا يحوي القرآن الكريم نقداً للشعراء من حيث كونهم شعراء ، ولكنهم كبقية البشر : إن أحسنوا أثيبوا ونالوا المدح والثناء ، وإن أساءوا عوقبوا واستحقوا الذم والهجاء .

٣ ـ نفى شاعرية الرسول مثلها مثل نفي صفات أخرى ، أو تهم أخرى ، بهدف إثبات النبوة وتكذيب المشركين والكفار في ادعاءاتهم .

وليست نيلا من الشعر ، ولا حطا من شأن الشعراء ، إنما إثبات لتلقيه الوحى عن ربه .

٤ — تنزيه القرآن عن كونه شعرا هو إثبات لكونه كلام الله ، ونفى أى صفة أخرى ادعاها المشركون كالسحر والأساطير والتخيلات ، فليس فى هذا التنزيه تحقير للشعر أو غض من قيمته ، هو تنزيه للقرآن عن مشابهة كلام البشر .

والقول الحق هو أن الشعر فى نظر القرآن — كأى نشاط إنسانى — له حدوده وشرائطه التى تتفق مع مبادىء الإسلام وقيمه ، فإن التزم بتلك الحدود ، وراعى هذه الشرائط ، فلم يخرج عن الإطار العام للدين ، وجد مكانه فى المجتمع الإسلامى ، ونما وازدهر بلا محاربة أو نقد . وإن أعرض عن تلك الشرائط وجاهر بما ينافى جوهر الدين ، ويخالف قيمه ومبادئه فلا مكان له ، وهو مطارد مذموم كأى نشاط هدام مخرب .

بقى أن نتعرف على رأى السنة المطهرة ، وموقفها من الشعر ، فهى المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن ، وهى مفسرة ومفصلة لما أجمل أو غمض من آياته ، وقد حثنا الله جل شأنه على الطاعة التامة للرسول الكريم والأخذ والتسليم بما يحكم ويقول ﴿والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى﴾(١) .

وعلى ذلك فنحن فى استعراضنا لأحاديث الرسول ﷺ — ومواقفه

---

(١) سورة النجم ، آيات ١ ، ٤

من الشعر والشعراء ، نضع فى اعتبارنا أنها لا يمكن أن تعارض أو تناقض أو تخالف آيات القرآن فى نفس المجال ، واذا بدا فى ظاهرها أدنى مخالفة، فالأولى أن نراجع أنفسنا وفهمنا ، ونراجع الرواية ، وكذا بقية الاحاديث والمواقف حتى نصل إلى الحق والصواب وإلى المعنى المراد فعلا .

ثانيا : موقف الرسول ـ عليه السلام ـ قولا و فعلا

سنة النبي ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ أقوال وأفعال أو هي آراء ومواقف ، أقوال هي ما يعرف بالأحاديث الشريفة ، وقد حفظت ودونت وحققت لتكون مرجعا للأحكام والفتاوى . والأفعال هي تصرفات وأنواع من السلوك صدرت عن الرسول الكريم في ظروف وأحداث فتناقلها الرواة لتكون ـ أيضا ـ مثلا يحتذى وهديا يتبع . وسوف نتأمل في هذه الأحاديث أو الأقوال ، كما نستقرىء تلك التصرفات والأفعال حتى نصل إلى الحقيقة .

والسنة المطهرة في موقفها من الشعر والشعراء قد ترحب وتحبذ وتثيب ، وقد تقف محايدة موضوعية فترضى عن الشعر إن أصاب طريق الحق ، وتأباه وترفضه إن ضل وانحرف ، ثم هي قد تعارضه وتطارده لسبب منطقي ودفاعا عن الهدى والدين .

هناك إذن مواقف ثلاثة : كراهة ، موضوعية ، ترحيب . ولنبدأ بموقف الكراهة والمعارضة ، لأن نصوصه قليلة محدودة ، وسوف يفسرها ويرد عليها ما يرد من أحاديث وأفعال في النوعين الآخرين .

أولا : موقف الكراهة ، أقوال وأفعال : عن أبي هريرة .

١ ـ لأن يمتلىء جوف رجل قيحا حتى يريه ، خير له من أن يمتلىء شعرا (١) .

---

(١) فيض القدير : ج ٥ ، ص ٢٥ حديث رقم ٧٢١٨
يريه : يلفظه ويخرجه من فيه .

(٢) وفى رواية أخرى « لأن يمتلىء جوف الرجل قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعرا »[١] .

(٣) وفى رواية ثالثة « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلىء شعرا »[٢] .

(٤) وهناك رواية رابعة لنفس الحديث « لأن يمتلىء جوف أحدكم دما أو قيحا خير له من أن يمتلىء شعرا » .

(٥) يروى فى نصين فقط أن رسول الله ـ عليه السلام ـ قد نهى عن رواية قصيدة « أمية بن أبى الصلت » فى رثاء قتلى قريش يوم بدر، وقصيدة « الأعشى » التى يرثى بها « علقمه بن علاثة » ، قال البغدادى فى خزانته : ذكر أن النبى ـ ﷺ ـ رخص فى الأشعار كلها إلا هاتين الكلمتين : كلمة أمية بن أبى الصلت فى أهل بدر ، وكلمة الأعشى فى علقمة بن علاثة »[٣] .

(٦) عن أم المؤمنين ـ عائشة ـ رضى الله عنها : قال صلوات الله وسلامه عليه : « اللهم من هجانى فالعنه ، فكأن كل هجاء هجانة لعنة »[٤] .

---

(١) سنن ابن ماجة : كتاب الأدب ، باب ما كره من الشعر ص ٤٢

(٢) دراسات فى أدب ونصوص العصر الاسلامى ص ٤٣

(٣) نحو أدب إسلامى معاصر .

(٤) دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى ص ٤٣

(٧) حين أسلم « بجير بن زهير بن أبي سلمى » أرسل إليه أخوه « كعب بن زهير » يلومه على تركه دين آبائه ، ويتطاول على الرسول الكريم فى شعره ، فأهدر الرسول دمه وأباح قتله .

(٨) كذا أثر عن النبي - ﷺ - أنه أهدر دم الشعراء الذين هجوه ، واعتدوا على أعراض المسلمين .

(٩) وأمر الرسول بقتل رجل ممن كانوا يهجونه وهرب ابن الزبعرى السهمى وهبيرة بن أبي وهب المخزومى خوفا لهجائهما رسول الله[1] .

ولنناقش هذه النصوص والأخبار بقاش العقل والمنطق :

(١) يقول العلامة « المناوى » صاحب فيض القدير « فى شرح الحديث » خير له من أن يمتلىء شعرا ، أنشأه أو أنشده مما يؤول إليه أمره من لشاغله به عن عبادة ربه ، قال القاضى : والمراد بالشعر ما تضمن تشبيبا أو هجاء أو مفاخرة ، كما هو الغالب فى أشعار الجاهلية .

وقال بعضهم : قوله « شعرا » ظاهره العموم فى كل شعر ، لكنه مخصوص بما لم يشتمل على الذكر والزهد والمواعظ والرقائق مما لا إفراط فيه .

وقال النووى : هذا الحديث محمول على التجرد للشعر بحيث يغلب عليه فيشغله عن القرآن والذكر .

---

(١) دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى ص ٤٣

عن سعد وأبي سعيد قالا : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ ، إذ عرض شاعر ينشد ، فقال رسول الله ﷺ : خذوا الشيطان أو امسكوا الشيطان ، ثم ذكر الحديث السابق »(١) .

كما ورد في سنن ابن ماجه شرحا للحديث ، وقد فسره الفقهاء على أنه المقصود أن يغلب الشعر على الرجل يشغله عن ذكر الله وعن القرآن والحديث »(٢) .

وقبل أن نتخذ رأيا في الحديث نشير إلى أن عائشة ـ أم المؤمنين رضي الله عنها ـ قالت حين سمعت رواية أبي هريرة : لم يحفظ أبو هريرة الحديث ، إنما قال رسول الله « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا ودما ، خير له من أن يمتلىء شعرا هجيتُ به »(٣) .

وبهذا التصحيح من أم المؤمنين ينجلي الحق ، فلا ريب أن السنة النبوية تشرح القرآن وتوضحه ، فلو أخذنا برواية أبي هريرة لكان الحديث مخالفا للقرآن ولأقوال وأفعال أخرى للرسول المصطفى ، أما رواية عائشة رضي الله عنها فتحدد الشعر المذموم ـ هجاء الرسول ـ وهو ما يوافق آي القرآن وما يؤكده الحديث رقم (٦) الذي يلعن من

---

(١) فيض القدير ، ج ٥ ص ٢٥٩ ـ الشرح .

(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب ما كره من الشعر ص ٤٢

(٣) نحو أدب إسلامي معاصر ص ١١١

هجا رسول الله ، وهو كذلك لا يتعارض مع رأى النبى وموقفه ـ ﷺ ـ من الشعر والشعراء عامة ، وبالطبع ينسحب ما قلناه على بقية الروايات الأخرى لنفس الحديث ، وكذا فإن الحديث رقم (٥) يثبت صحة هذا التفسير ، فالقصيدتان المنهى عنهما تخوضان فى أعراض المسلمين وتمجدان الكفر وتهاجمان الدين الحنيف ، ودليل ذلك أن أشعارا كثيرة لأمية بن أبى الصلت كانت تعجب الرسول عليه السلام ، وأن أشعار الأعشى ـ غير ما ذكر ـ كانت تنشد بلا غضاضة .

بقيت مواقف الرسول ـ عليه السلام ـ ممن هجوه ، حين أهدر دمهم وقتل من بقى على كفره حين ظفر به ، ولا شك أن ذلك يتفق وينسجم مع الحديث رقم (٦) ومع رواية أم المؤمنين للحديث الأول ومع القرآن ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ (١) ودليل ذلك أن من تاب منهم عفى عنه الرسول وأكرمه ، مثل كعب ابن زهير وغيره .

بقى ما ورد فى شرح الحديث الأول عند المناوى من حديث سعد وأبى سعيد عن قول المصطفى حين عرض شاعر ينشد : « خذوا أو امسكوا الشيطان » لم يوضح الراوى نوع ما كان ينشده من شعر ، فلعله كان هجاء مرذولا يكفر صاحبه ، ولعله فحش من القول يستحق قائله الرجم ، وربما كان هياما فى أودية الضلال يجب أن يحارب ، وما كان رسول الله ليقول عنه « الشيطان » إلا لسبب مما ذكر .

---

(١) سورة الشعراء آية ٢٢٧

٢ ـــ الموقف الموضوعي المحايد : يحسّن ما كان حسنا موافقا لمبادىء الدين وقيمه ، ويحارب ما كان سيئا منافيا للدين وتعاليمه .

١ ـــ عن عائشة ـ رضى الله عنها « الشعر بمنزلة الكلام ، فحسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام » (١) .

٢ ـــ ورواية أخرى لنفس الحديث « إنما الشعر كلام مؤلف ، فما وافق الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه »(٢)

٣ ـــ وتقول أم المؤمنين فى رواية أخرى « الشعر فيه كلام حسن وقبيح ، فخذ الحسن واترك القبيح » (٣) .

٤ ـــ ولهذا الحديث رواية رابعة أنه عليه السلام قال « إنما الشعر كلام ومن الكلام خبيث وطيب » (٤) .

٥ ـــ لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين (٥)

٦ ـــ عن ابن عباس « آمن شعر أمية بن أبى الصلت ، وكفر قلبه » (٦) .

---

(١) فيض القدير : ج ٤ ص ١٧٥ ، حديث رقم ٤٩٣٩

(٢ ، ٣) دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى ص ٤٠

(٤) نحو أدب اسلامى معاصر ص ١١٨

(٥) فيض القدير : ج ١ ص ٥٧ رقم ١٩

(٦) المرجع السابق ج ١ ص ٥٢٤ حديث رقم ١٠٦٧

٧ — عن أبي هريرة « أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل »(١).

٨ — عن النبي ﷺ « ما وُصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة »

٩ — امرؤ القيس صاحب « لواء الشعراء إلى النار » عن أبي هريرة وعنه أيضا « امرؤ القيس قائد الشعراء إلى النار لأنه أول من أحكم قوافيها »(٢)

١٠ — قال يزيد بن مسلم الخزاعي عن أبيه ، عن جده ، قال دخلت على النبي ﷺ — ومنشد ينشده قول شريك بن عامر المطلق :

لا تأمنن ، وإن أمسيت في حرم
إن المنايا تحمّى كل إنسان
والخير والشر مقرونان في قرن
بكل ذلك يأتيك الجديدان

فقال النبي ﷺ « لو أدرك هذا الإسلام لأسلم »(٣)

١١ — حين سمع الرسول عليه السلام قول طرفة بن العبد :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

قال عليه السلام : « هذا من كلام النبوة »(٤)

---

(١) نحو أدب اسلامي معاصر ص ١١٨ (٢) فيض القدير جـ ٢ صـ ١٨٦ (٣ ، ٤) العقد الفريد جـ ٣ صـ ٩٨ / ١٠١

(١٢) حين أتى الطفيل بن عمرو الدوسى إلى الرسول ﷺ وأنشده أبياته :

ولا — وإله الناس — نألم حربهم
ولو حاربتنا تمشهب وبنو فهم
أسلمنا على خسف ولست بخالد
وما لى من واق ، إذا جاءنى حتمى
فلا سلم حتى تحفز الناس خيفة
ويصبح طير كانسات على لحم

فأعرض عنه الرسول الكريم ، لما فى شعره من روح جاهلية تمجد العدوان وتسعى للانتقام وتتشفى بالأذى ، ثم وجهه للسبيل الأهدى فقرأ عليه سورة الإخلاص والمعوذتين.

(١٣) وعن عبد الله بن رواحة أن النبى الكريم سأله « أخبرنى .. ما الشعر يا عبد الله ؟»

فقال : « شىء يختلج فى صدرى فينطلق به لسانى »

قال « فأنشدنى » ، فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

قبلت — لله — ما آتاك من حسن
فقوت عيسى — بإذن الله — والقدر

فقال النبي « وإياك قبلت لله ، وإياك قبلت لله »(١)

لا ريب أن بعض الحيرة ستتملكنا حين نقرأ هذه الأحاديث فنجد الرسول يرفع بعض الشعراء إلى مصاف النبوة ، ويحكم على البعض بنار جهنم ، لكننا لو تريثنا فى تفهمها ، واستعنا بالشروح وفسرنا بعضها بالبعض لوصلنا إلى لب الحقيقة .

إن الأحاديث الأربعة الأولى واضحة المعنى : الشعر كأى كلام آخر ، منه الطيب الذى يقبله الرسول ويحثنا على قبوله ، ومنه الخبيث الردىء الذى يدينه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ويحذرنا منه .

والحديث الخامس يرى فى الشعر فن العرب الأول ، الذى أجادوه ، وتعلقوا به تعلقا شديدا ، فصار جزءا من طبعهم لا يفارقهم ولا يتركوه ما عاشوا ، وهو قول صادق صحيح ، وفى شرح الحديث رقم (٦) قال الزمخشرى عن أمية : كان داهية من دواهى ثقيف ، وثقيف دهاة العرب ، ومن دهائه ما هم به من ادعاء النبوة ، وكان جلابة للعلوم جوالا فى البلاد (وكفر قلبه) أى اعتقد ما ينافى شعره المشحون بالإيمان والحكمة والتذكير بآلاء الله وأيامه ؛ فلم ينفعه ما تلفظ به مع جحود قلبه ، روى مسلم عن عمرو بن الشريد قال « ردفت النبى ﷺ فقال : هل معك من شعر أمية ؟ قلت نعم ، فأنشدته مائة بيت فقال : لقد كاد أن يسلم فى شعره » .

أما شرح الحديث رقم (٧) فهو ، وفى رواية « أصدق كلمة قالها شاعر »

(١) فيض القدير جـ ١ صـ ٥٧

وفى أخرى « أصدق بيت قاله الشاعر » ، وفى أخرى « أصدق بيت قالته الشعراء » ، وفى أخرى « أصدق كلمة قالتها العرب » وهذا قريب من قوله تعالى ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ . . .

وروى السلفى فى مشيخته البغدادية عن يعلى بن جراد قال « أنشد لبيد النبى ﷺ قوله : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » فقال « صدقت » فقال : وكل نعيم لا محالة زائل » ، فقال « كذبت ، فنعيم الآخرة لا يزول » (١) أما الحديث رقم (٨) ورقم (٩) فيفسران بعضهما ، لقد كان عنترة مجسداً للقيم النبيلة : الشهامة والمروءة والإباء والشجاعة ، وكان شعره صورة صادقة لحياته وسلوكه ، فهو يقول ما يفعل ، لا يكذب ولا يتقول ، وهو لا يقول هجراء مقذعا ولا غزلا فاضحا أو أى كلام يؤذى .

وكان امرؤ القيس على النقيض من ذلك : فاحش القول ، إباحى الغزل ، سيء السلوك ، كاذب مدعى .

فلا غرابة أن يحكم النبى على امرىء القيس بقيادة الشعراء من أمثاله إلى النار ، ويتمنى ﷺ لو كان قد رأى عنترة .

أما بقية المواقف من لقاءات الرسول بالشعراء وتعقيبه على أشعارهم بما يفيد الإعجاب والتقدير ، فهى تنسجم مع خلاصة الأحاديث السابقة من استحسان ما يتفق مع الدين والخلق القويم ، واستهجان ما يخالفهما .

---

(١) فيض القدير ج ١ ص ٥٢٤

الموقف الثالث : ترحيب وإثابة : أقوال وأفعال .

١ — عن كعب بن مالك — رضى الله عنه — قال رسول الله ﷺ : إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه[1] وفى شرح الحديث قال « أراد بالجهاد باللسان هجو الكفر وأهله ، وهذا إلى ظاهر الأخبار أقرب ، ومقصود الحديث أن المؤمن شأنه ذلك فلا ينبغى أن يقتصر على جهاد أعدائه بالسنان ، بل يضم إليه جهاد اللسان ، عن كعب بن مالك قال : لما نزلت ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ أتيت رسول الله ﷺ فقلت: ماترى فى الشعر؟ قال : إن المؤمن يجاهد . . . الحديث .

٢ — وقال صلوات الله عليه — لكعب بن مالك « ان المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذى نفسى بيده ، لكأن ما ترمونهم به نضح النبل »[2]

٣ — عن أبى سلمة بن عبدالرحمن بن عوف أنه سمع حسان بن ثابت الأنصارى يستشهد أبا هريرة فيقول : يا أبا هريرة نشدتك بالله ، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول : يا حسان أجب عن رسول الله ، اللهم أيده بروح القدس؟ قال أبو هريرة : نعم »[3]

(٤) وعن البراء — رضى الله عنه — أن النبى ﷺ قال لحسان « اهجهم — أو قال هاجهم — وجبريل معك »[4] .

---

(١) فيض القدير : ج ٢ ص ٣٨٦ حديث رقم ٢١٠٤

(٢) دراسات فى أدب ونصوص العصر الاسلامى ص ٤٠

(٣) صحيح البخارى ج ٨ ص ٤٥

(٤) السابق ج ٨ ص ٤٥

(٥) عن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ قال رسول الله ﷺ « هجاهم حسان ، فشفى واشتفى »[١] .

(٦) وفى رواية أخرى : قال صلوات الله وسلامه عليه : « أمرت عبد الله بن رواحة بهجاء قريش فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى »[٢] .

(٧) بعد هجرة الرسول الكريم للمدينة المنورة ، اشتد هجاء الشعراء المشركين ـ عبد الله الزبعرى وضرار بن الخطاب وأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعمرو بن العاص ـ اشتد هجاؤهم للرسول والمسلمين ، فقال عليه السلام للأنصار « ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ » فقال حسان : أنا لها يا رسول الله ، قال الرسول الكريم « كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ » .

فقال : والله لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين . فيقول له الرسول « اذهب إلى أبى بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهجهم وجبريل معك »[٣] .

(٨) وجاء فى العقد الفريد « ولو لم يكن من فضائل الشعر إلا أنه

---

(١) فيض القدير ج ٦ ص ٣٥٢ حديث رقم ٩٥٨٤

(٢) دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى ص ٤٩

(٣) راجع كتاب الحطيئة : د . درويش الجندى ص ٦٤

أعظم جند يجنده رسول الله ـ ﷺ ـ على المشركين ، يدل على ذلك قوله لحسان « شن الغارة على بنى عبد مناف ، فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام فى غبش الظلام وتخبط يمشى فيه (*) .

« قال والذى بعثك بالحق نبيا لأسلنك منهم سل الشعرة من العجين، ثم أخرج لسانه فضرب به أرنبة أنفه ، وقال والله يا رسول الله انه ليخيل إلىّ أنى لو وضعته على حجر لفلقه أو على شعر لحلقه ، فقال النبى ﷺ : أيد الله حسان فى هجوه بروح القدس »(١) .

(٩) وقال ﷺ معقبا على هجاء حسان « لهذا أشد عليهم من وقع النبل »(٢) .

(١٠) حين أنشد حسان قصيدته التى يردّ بها على أبى سفيان بن الحارث أمام الرسول ـ ﷺ دعا له بالجنة مرتين ، فعندما قال :

هجوت محمداً فأجبت عنه
وعند الله فى ذاك الجزاء

قال صلوات الله وسلامه عليه « جزاؤك عند الله الجنة يا حسان » .
ولما وصل إلى قوله :

(*) أظن المقصود : وتخبطوا يمشون فيه ، أى بنى عبد مناف .

(١) العقد الفريد ص ١٣٠ ج ٣

(٢) دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى ص ٤٠

فإن أبي ووالده وعرضي

لعرض محمـــد منكم وقاء

قال النبي الكريم : «وقاك الله حر النار».

(١١) عن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ «روّوا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم»(١) .

أما مواقف الرسول الكريم من إنشاد الشعر ومن الشعراء فهى عديدة يصعب حصرها، ولكننا نستعرض أمثلة منها لاستكمال الصورة .

(١) يقول جابر بن سمرة «جالست النبي ﷺ أكثر من مائة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت فربما تبسم معهم»(٢) .

(٢) ورد فى تفسير القرطبي أن الخليل بن أحمد قال : «كان الشعر أحب إلى رسول الله من كثير من الكلام»(٣) .

(٣) سمع رسول الله ﷺ أمّ المؤمنين عائشة وهى تنشد لزهير بن جناب قوله :

ارفع ضعيفك لا يحل بك ضعفه

يوماً ، فتدركه عواقب ما جنى

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٩٩/١٠٠

(٢ ، ٣) نحو أدب إسلامى ص ١١٨

يجزيك أو يثنى عليك فإن من

أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

فقال النبى « صدقت يا عائشة ، لا شكر الله من لا يشكر الناس »(١)

٤ — عن الأصمعى أن رجلا جاء إلى النبى الكريم فقال : (٢) أنشدك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، فأنشد :

تركت القيان وعزف القيان

وأدمنت تصلية وابتهالا

وحكر الشقر فى حومة

ونثق على المشركين النقالا

أيا رب لا أغبنن صدقة

فقد بعت مالى وأهلى بدالا

فقال النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه : « ربح البيع ، ربح البيع » .

٥ — وجاء فى العقد الفريد أيضا أن النبى ﷺ قال لكعب ابن مالك « لقد شكر الله لك قولك » : (٣)

زعمت سخينة أن تغالب ربها

وليغلبن مغالب الغلاب

(١ ، ٢) ـ العقد الفريد : ج ٣ ، ص ١٠٠

(٣) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٠١

٦ ـ موقف الرسول الكريم من الشاعر كعب بن زهير : كنا قد أشرنا فى موقف الكراهة إلى اهدار النبى ﷺ لدم كعب بن زهير بعد ما قاله من شعر يعرض فيه بالإسلام ورسوله ، ومنه هذه الأبيات (١) :

ألا أبلغا عنى بجيراً رسالة
فهل لك فيما قلت بالخيف هل لكا
شربت مع المأمون كأساً روية
فأنهلك المأمون منها وعلكا
وخالفت أسباب الهدى وتبعته
على أى شىء ـ ويب غيرك ـ دلكا
على خلق لم تلف أماً ولا أبا
عليه ، ولم تدرك عليه أخاً لكا

وخاف بجير على أخيه فكتب إليه يحذره لأن الرسول يبيح دم من يهجوه حرصاً على الدين وحماية لأعراض المسلمين .

وأنه لم يبق ممن آذوه سوى هبيرة بن وهب وابن الزبعرى اللذين هربا منه ، فإن كانت لك فى نفسك حاجة فأقدم عليه ، فإنه لا يقتل أحدا

---

(١) العصر الإسلامى : د ، شوقى ضيف ص ٨٤ ويقصد بلفظ المأمون رسول الله ﷺ ، أو أبا بكر رضى الله عنه .

أتاه تائبا ، وإن أنت لم تفعل فالجأ بنفسك ، فلما ورد على كعب كتاب أخيه خاف على نفسه فأعد قصيدته الشهيرة « بانت سعاد » وقدم إلى مكة فذهب لأبي بكر الذي صحبه لمسجد الرسول — وهو متلثم بعمامته — وقال : يا رسول الله هذا رجل جاء يبايعك على الإسلام ، فبسط النبي يده الشريفة ، وكشف كعب عن وجهه وقال : هذا مقام العائذ بك يا رسول الله، وأنا كعب بن زهير،فأمنه الرسول واستنشده لاميته :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

متيم إثرها ، لم يفد مكبول

وبعد الغزل ووصف الرحلة والناقة يشير إلى خوفه :

يسعى الوشاة جنابيها وقولهم

إنك يا ابن أبي سلمى ، لمقتول

فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكم

فكل ما قدّر الرحمن مفعول

وينتقل إلى الاعتذار وطلب العفو من رسول الله :

أنبيت أن رسول الله أوعدني

والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة

القرآن ، فيها مواعيظ وتفصيل

لا تأخذنى بأقوال الوشاة فلم
أذنب ، وإن كثرت فى الأقاويل

ويثنى بمدح الرسول والمهاجرين :

إنّ الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول

فى عصبة من قريش قال قائلهم
ببطن مكة لما أسلموا ، زولوا

زالوا فما زال أنكاس ولا كشف
عند اللقاء ولا ميل معازيل

شم العرانين أبطال ، لبوسهم
من نسج داود فى الهيجا سرابيل

وقال كعب بن زهير : فلما ختمت القصيدة رمى بها رسول الله ﷺ ببردة كانت عليه . فلما كان زمان معاوية رضى الله عنه بعث إلى كعب بن زهير: « بعنا بردة رسول الله ﷺ بعشرة آلاف » فوجه إليه الجواب « ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحدا » . فلما مات كعب بعث معاوية إلى أولاده بعشرين ألفاً ، وأخذ منهم البردة »(١) .

---

(١) شرح التبريزى على بانت سعاد : د . عبد الرحيم الجمل ص ١

وقبل أن ننتقل لموقف آخر ، نشير إلى قصة تتصل بزهير وقصيدته وتروبها معظم الكتب ، تقول القصة إن كعبا عرّض بالأنصار فى البيت التالى :

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم

ضرب إذا عرد السود التنابيل

وأن الرسول — عليه السلام — قال له « لولا ذكرت الأنصار بخير فإنهم لذلك أهل » ، وقال المهاجرون « ما مدحتنا إذ هجوتهم » ، فقال كعب أبياتا يمدح فيها الأنصار :

من سره كرم الحياة فلا يزل

فى مقنب من صالحى الأنصار

ورثوا المكارم كابراً عن كابر

إن الخيار هم بنو الأخيار

وأرى القصة ملفقة لا يقبلها المنطق للأسباب التالية :

(١) قيل إن تعريضه بالأنصار يرجع إلى تجهمهم له ومحاولة قتله لما بدر منه فى حق الرسول ، والمفروض أن هذا قد حدث حين قابل رسول الله ، على حين أن القصيدة معدة ومنظومة مسبقا « فقال قصيدته التى أولها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول

وفيها يقول :

نبئت أن رسول الله أوعدنى
والعفو عند رسول الله مأمول

ثم أتى رسول الله . . .»[1] أى أنه نظم القصيدة قبل اللقاء وهو أمر طبيعى ، فلا يعقل أن يرتجل قصيدة من سبعة وخمسين بيتا فى لحظة اللقاء ، فكيف عرف مقدما أن الأنصار سوف يتجهونه ويرغب أحدهم فى قتله ، فيهجوهم ؟

(٢) ليس فى البيت أية إشارة إلى الأنصار حتى يعدّ موجها إليهم فضلا عن أن يكون تعريضا بهم .

لقد بدأ مدح المهاجرين بقوله :

فى عصبة من قريش ...
شم العرانين . . .
لا يفرحون إذا نالت . . .
يمشون مشى الجمال . . .
لا يقع الطعن إلا فى نحورهم ...

إنها سبعة أبيات تمضى على نسق واحد ، والضمير فيها للغائبين (هم) يعود على المهاجرين[2]

---

(١) الشعر والشعراء : ابن قتيبة ص ٧٠

(٢) راجع القصيدة فى ديوان كعب بن زهير أو شرح التبريزى .

٣ — فى شرح الخطيب التبريزى للقصيدة لايشير إلى مسألة التعريض قط ، وهو يحكى مناسبة القصيدة فى رواية عن كعب نفسه بطريق أبى بكر الأنبارى عن الحجاج ذى الرقيبة بن عبد الرحمن بن عقبة بن كعب[1] فهى ثقة .

٤ — معنى البيت يقول : إن المهاجرين يمشون إلى الحرب فى ثقة وثبات وتؤدة ـ مثل الجمال ـ وأن هجومهم على الأعداء وضربهم إياهم يجعلهم فى منعة وعصمة ، فى الوقت الذى يفر ويجبن كل أسود قصير . وصفة السواد والقصر هنا تنصرف للأعداء — ربما الكفار — الذين يفرون .

٥ — أما قول المهاجرين « لم تمدحنا إذ هجوتهم » فقد يكون تحريفا بسبب النسيان أو لغرض فى النفس ، وربما كان القول لم تمدحنا إذ نسيتهم أو تجاهلتهم ، لأنه لم يذكر الأنصار . وأما قول الرسول الكريم « لولا ذكرت الأنصار .. » فهو توجيه نبوى ، لقد آخى الرسول — عليه صلوات ربه وسلامه — بين المهاجرين والأنصار فى كل شىء . فأحب ألا يخص الشاعر فريقا بالمدح دون الآخر ، فيجرح مشاعره ، لذلك يلفته الى استرضائهم كما استرضى إخوانهم المهاجرين .

ونعود لمواقف الرسول من الشعراء :

مع النابغة الجعدى : قدم النابغة الجعدى ـ أبو ليلى ـ على رسول الله ﷺ فأنشده :

---

(١) شرح التبريزى ص ١٥

أتيت رسول الله اذ جاء بالهدى

ويتلو كتابا كالمجرة نيّرا

فلما وصل إلى قوله مفاخرا :

بلغنا السماء : مجدنا وجدودنا

وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فسأله النبى: « إلى أين يا أبا ليلى؟ »

قال : إلى الجنة — بك يا رسول الله .

فقال النبى: « الجنة إن شاء الله »

وأكمل إنشاده ، حتى بلغ قوله :

ولا خير فى حلم اذا لم تكن له

بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولا خير فى جهل إذا لم يكن له

حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال رسول الله — ﷺ — « صدقت ، لا يفضض الله فاك » فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنقص له سن (١) .

(٨) موقف الرسول الكريم من أبى جرول الجشمى: وينقل صاحب

(١) الشعر والشعراء : ص ١٧٧ والعقد الفريد ج ٣ ص ١٠٠

العقد عن ابن هشام ، حدثني أبو جرول الجشمي وكان رئيس قومه ، قال : أسرنا النبي ﷺ يوم حنين ، فبينا هو يميز الرجال من النساء إذ وثبت فوقفت بين يديه وأنشدته :

امنن علينا رسول الله في كرم

فإنك المرء نرجوه ونلتظر

امنن على نسوة قد كنت ترضعها

يا أرجح الناس حلما حين يختبر

إنا لنشكر للنعما إذا كفرت

وعندنا بعد هذا اليوم مدخر

فذكرته حين نشأ في هوازن وأرضعوه ، فقال عليه السلام : أما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم ، فقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لله ولرسوله ، فردت الأنصار ما كان في أيديها من الذراري والأموال . ويعقب ابن عبد ربه — مؤلف العقد — بقوله : « فإذا كان هذا مقام الشعر عند النبي ﷺ فأي وسيلة تبلغه أو تسمره ؟ »[1] .

(٩) موقفه — ﷺ — من عمرو الخزاعي :

روى أن عمرو بن سالم الخزاعي قدم على الرسول مستنصراً ، وكانت خزاعة في حلفه ، فاعتدت عليها قريش — فقال :

---

(١) العقد الفريد ص ١٠٢

يا رب إني ناشد محمدا
حلف أبيـــه وأبينا الأتلدا
قد كنت والدا وكنا ولدا
ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً أعتدا
وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قـــد تجردا
إن سيم خسفا وجهه تربدا
إن قريشـا أخلفوك الموعـدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذلّ وأقلّ عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا
وقتلونا ركعـا وسـجدا

فما إن سمع الرسول هذا الشعر حتى دمعت عيناه وقال « نصرت يا عمرو بن سالم »(١) . ويكمل صاحب العقد عن ابن هشام « ثم عرض

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين : د . صلاح الهادى ص ٢٢٥

عارض من السماء فقال رسول الله ﷺ : إن هذه السحابة تستهل بنصر بنى كعب ، وتلك الحادثة كانت أحد الأسباب المباشرة لفتح مكة(١) .

(١٠) مع العلاء بن الحضرمى : جاء العلاء يوما إلى الرسول صلوات الله عليه ، فسأله : هل تروى من الشعر شيئا ؟

فأنشده : فى ذوى الأضغان تسب قلوبهم

تحيتك الحسنى فقد ترفع النحل

فإن حسوا بالسكره فاعف تكرما

وإن حبسوا عنك الحديث فلا تسل

فإن الذى يؤذيك منه سماعه

وان الذى قالوا وراءك لم يقل

فلما سمع هذا الشعر قال قولته المشهورة : «إن من الشعر لحكمة»(٢) .

(١١) موقفه من قيس بن الخطيم : «ويروى أبو الفرج خبرا عن أنس بن مالك يقول فيه أن رسول الله جلس فى مجلس ليس فيه إلا خزرجى واحد ، ثم استنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم ، يعنى قوله :

أتعرف رسما كاطراد المذاهب

لعمرة وحشا غير موقف راكب

---

(١) العقد الفريد ص ١٠٢

(٢) الأدب فى عصر النبوة والراشدين ص ٢٢٢

فأنشده بعضهم إياها ، فلما بلغ قوله :

أجادلهم يوم الحديقة حاسرا

كأن يدى بالسيف محراق لاعب

فالتفت إليهم رسول الله ﷺ وقال « هل كان كما ذكر ؟ » فشهد له ثابت بن قيس بن شماس ، وقال « والذى بعثك بالحق يا رسول الله ، لقد خرج الينا يوم سابع عرسه . . . فجالدنا كما ذكر »(١)

٢ — موقفه ﷺ من وفد بنى تميم : فى عام الوفود — بعد فتح مكة — قدم وفد بنى تميم على النبى ﷺ ومعهم خطيبهم عطارد بن حاجب بن زرارة وشاعرهم الزبرقان بن بدر ، فلما خرج اليهم النبى قالوا : « يا محمد جئناك لنفاخرك . . فأذن لشاعرنا وخطيبنا » فأذن لهم الرسول ولما انتهى خطيبهم أمر ثابت بن قيس الأنصارى فرد عليه ، ثم أذن لشاعرهم الذى قال فى قصيدته :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا

منا الملوك وفينا يقسم الربع

وكم قسرنا من الأحياء كلهم

عند النهاب وفضل العز يتبع

إنا أبينا ، ولم يأب لنا أحد

وانا كذلك عند الفخر نرتفع

---

(١) قضايا الشعر فى النقد العربى : د . ابراهيم عبد الرحمن ص ٢٨٨

وحين بدأ شاعر بنى تميم ينشد ، بعث رسول الله إلى حسان - ولم يكن بالمجلس - فحضر وسمع قول الزبرقان فلما قال رسول الله « قم ياحسان فأجب الرجل فيما قال » وقف فارتجل على نفس الوزن والروى :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته
تقوى الإله ، بالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم
أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
إن كان فى الناس سباقون بعدهم
فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

واستمر إلى نهاية القصيدة ، ولما فرغ حسان قال رئيس الوفد - الأقرع بن حابس - : وأبى ، إن هذا الرجل - يعنى رسول الله - لؤتى له بخطيبه أخطب من خطيبنا ، وشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا ، ولم ينفض المجلس إلا بدخولهم فى الإسلام وتصديقهم الرسول ﷺ »(١)

---

(١) دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى ص ١٦٠/١٦٤

(١٣) « حين دخل مكة معتمراً (عمرة القضاء ٧ هـ) قدم بين يديه عبد الله بن رواحة ، فأخذ يخطام ناقته مرتجزا بأبيات منها »[1] :

خلوا بنى الكفار عن سبيله
خلوا فكل الخير مع رسوله
يا رب إنى مؤمن بقيله
أعرف حق الله فى قبوله

خلاصة موقف السنة النبوية : لو تأملنا الأحاديث السابقة باتجاهاتها الثلاثة ، واستقرأنا مواقف الرسول — صلوات ربه عليه — فسوف نخرج بعدة نتائج ، توضح وتدعم ما عرفناه قبلاً حين تأملنا آيات الله البينات حول الشعر :

(١) موقف السنة يتسق مع موقف القرآن الكريم ، فهى تكره من الشعر ما تضمن هجاء للرسول وحربا على الإسلام ونيلا من المسلمين ، وتكره من الشعراء من حاد عن طريق الحق وخالف مبادىء الإسلام وتنكر للخلق القويم .

(٢) أحاديث النهى والكراهة لا تخرج عن ثلاثة : أولها بعدة روايات ومنها رواية أم المؤمنين عائشة وهى تنص على كراهة الشعر الذى هجا الرسول ﷺ .

وثانيها : يلعن من تطاول على الرسول وهجاه .

---

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين ص ٢٢٥

وثالثها : ينهى عن رواية قصيدتين تحويان تمجيدا للكفار ، ووعيدا للمسلمين ، وهجوما على الإسلام .

(٣) مواقف الرسول — عليه السلام — المناهضة للشعر أو المهاجمة للشعراء ، لا تخرج عن التصدى لمن حارب الله ورسوله والمؤمنين .

(٤) أدرك الرسول بفطرته السليمة ، وحكمته البالغة ، اعتزاز العرب بالشعر ، وابداعهم فيه وتمسكهم به ، حتى ليوشك أن يكون غريزة فيهم — كحنين الإبل — والرسول عربى ، يتذوق الشعر ويدرك تأثيره فى النفوس ، فليس من المقبول منطقيا أن يقال إنه — صلوات الله عليه — قد حاربه أو نهى عنه «وجدنا الشعر من القصيد والرجز قد سمعه الرسول ﷺ — واستحسنه ، وأمر به شعراءه »(١) ولكن المتوقع أن يقوّم هذا الفن ويهذبه .

(٥) التف حول الرسول الكريم جماعة كبيرة من الشعراء المؤمنين بعضهم كانت له صحبة ورواية ، فهم من حفظة الحديث النبوى ورواته ، وبعضهم شرف بالصحبة وحدها . ومن الأولين ، الصحابة الأجلاء رواة الحديث(٢) حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وعدى بن حاتم الطائى ، وعباس بن مرداس السلمى ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب .. وغيرهم .

---

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ص ١٥٣

(٢) راجع : دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى ص ٤٣/٤٤

وممن لهم شرف الصحبة دون الرواية : أحمد بن زهير ، ولبيد بن ربيعة ، وضرار بن الخطاب ، وابن الزبعرى .. وغيرهم : فكيف يفسح الرسول فى مجلسه للشعراء ويسمح بالرواية عنه ، إن كان يكره الشعر أو يعرض عن الشعراء ؟

(٦) من الأحاديث الواردة عن « عنترة وامرىء القيس وأمية وطرفة » ثم من المواقف العديدة للرسول المصطفى مع شعراء آخرين يتضح جليا دأن الرسول لم يكن يرفض الشعر بمامه ، ويعرض عن الشعراء أجمعين ، فقد رأيناه يقبل على ما حسن ، ووافق الحق من الأشعار ، ولم يتضمن ما ينافى روح الإسلام وتعاليمه وآدابه ، واشتمل على العظة والعبرة والتذكير والحض على الفضائل وغير ذلك مما يدخل تحت قوله — ﷺ — : إن من الشعر لحكمة »(١) .

(٧) وما دام للشعر تأثيره وقوته ، فلا ريب أن الحكمة النبوية رأت اتخاذه سلاحا للدفاع عن الدين ومناهضة الشرك ، خاصة وقد بدأ الشعراء الكفار بإطلاق سهام ألسنتهم ، واختار الرسول حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة من الأنصار ليردوا على شعراء قريش ، فكان اختياره موفقا لسببين :

الأول أن شعراء المدينة أقدر على قول الشعر من شعراء مكة ، والثانى أن شعر الأنصار يعد عهودا ومواثيق منهم للرسول(٢) .

---

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين ص ٢٢٧

(٢) تاريخ الشعر العربى : د . عبد العزيز الكفراوى ج ١ ص ٣١

(٨) ولم تقتصر نظرة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - إلى الشعر على اعتباره فنا من الفنون يستحسن الحسن منه، ويستهجن القبيح، بل كان عليه السلام يرغب فيه بالحث على روايته واستنشاده ، ويسمع لأصحابه في مجلسه ، ويبدي آراء نقدية صائبة فيما يسمع ، ويثيب على ما يعجبه ، وعدّ من أخطأ ، ولو رجعنا إلى موقفه مع النابغة الجعدي ، ولبيد ، وكعب بن زهير ، ومع السدوسي ، ثم مع رواة شعر قيس بن الخطيم ، فسوف نجده يرحب ويعجب بكل شعر تضمن الدعوة إلى خلق كريم ، أو أصدر حكما صائبا على فعل وسلوك ، ولكن الرسول بحسه المرهف ، وحكمته السديدة ، كان يعرض عن ذلك الشعر الذي يشيد بقيم جاهلية ، أو يخوض في الأعراض ، أو يوقظ كامن الفتن والضغائن ، أو يتباهى بروح الخيلاء والفخر بالأحساب والأنساب .

ولو كان الرسول يكره الشعر ، أو لا يعرفه حق المعرفة ، ما كان ليعقد تلك المجالس الأدبية لروايته وإنشاده ، ويسمح لشعرائه بالرّد على شعراء الوفود أو شعراء قريش .

وما كان ليرى فيه سلاحا مكملا لأسلحة القتال ، وما كان ليبدي تلك الآراء الصائبة ، ويظهر ذلك الإعجاب الصادق ، ولا كان يستجيب لمن اتخذ الشعر وسيلة للاعتذار وطلب العفو ، بل الافتداء من الأسر .

فالرسول إذن - مهتديا بالقرآن - لا يرفض الشعر جملة ولا يُنحّي الشعراء جميعا ، إنما يقبل ما وافق الحق والدين .

ثالثا : موقف الصحابة والراشدين

أظن أن موقف الإسلام من الشعر يزداد وضوحا واكتمالا حين نتعرف على آراء ومواقف صحابة رسول الله - ﷺ - وخلفائه الراشدين ، فهم متبعون لسنته ، مسترشدون بهديه عليه السلام ، ورأى الجماعة من الصحابة والخلفاء وأوائل التابعين ، يعتبر مصدرا ثالثا للتشريع بعد القرآن والسنة .

يطالعنا فى البداية قول أنس بن مالك - رضى الله عنه « قدم علينا رسول الله ﷺ - وما فى الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر ، قيل له : وأنت أبا حمزة ؟ قال : وأنا » (١)

وجاء فى البيان والتبيين : « وعامة أصحاب رسول الله ﷺ ، قد قالوا شعرا قليلا أو كثيرا ، سمعوا واستشدوا » (٢) .

وسئل الحسن البصرى : أكان أصحاب رسول الله ﷺ يمزحون ؟ قال نعم ، ويتقارضون القريض ، وهو الشعر » (٣) .

وروى عن أبى سلمة قوله : « لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متحزقين ولا متماوتين ؛ كانوا يتناشدون الأشعار ، ويذكرون أمر جاهليتهم ، فإذا أريد أحد منهم على شىء من دينه ، دارت حمالق عينيه كأنه مجنون » (٤)

الخليفة الأول : أبو بكر الصديق كان رضى الله عنه يستنشد الشعر

---

(١) العقد الفريد : جـ٣ ص١٠٣ (٢) البيان والتبيين جـ١ ص ١٥٣
(٣) الأدب فى عصر النبوة والراشدين ص ٢٩٠
(٤) المرجع السابق ص ٢٩٠

ويتذوقه ، ويبدى فيه آراء صائبة ، ويستشهد به فى خطبه. كذلك فقد خاض حروب الردة دفاعا عن الإسلام ، واستتابة للمرتدين حتى يفيئوا إلى أمر الله ، فكانت تلك الحروب ذات تأثير على نهضة الشعر الإسلامى حيث واكب اللسان معركة السنان ، وانطلقت سهام الكلمات تصيب المرتدين فى الصميم .

ومن آرائه التى تدل على دراية بالشعر قوله عن النابغة «هو أحسنهم شعرا وأعذبهم بحرا وأبعدهم قعرا »(١)

وحدث أن جاءه مال من البحرين فقام بتوزيعه على المسلمين بالتساوى وغضب الأنصار لذلك ؛ فقد كانوا يتطلعون إلى أن يزيد عطاءهم ، لما لهم من سابقة فى مناصرة الرسول ومؤاخاة المهاجرين ، فخطب فيهم الصديق ، وذكر فضلهم وأثنى عليهم ، متمثلا بأبيات طفيل الغنوى التى يقول فيها : (٢)

جزى الله عنا جعفرا حين أظلمت
بنا نعلنا فى الواطئين فزلّت

---

(١) دراسات فى أدب ونصوص العصر الاسلامى ص ٤١

(٢) الأبيات من كتاب الأدب فى عصر النبوة والراشدين ص ١٨٢ ، وطفيل شاعر جاهلى مات قبل الاسلام بقليل وكان حكيما ثريا فقام بالصلح بين قبيلته وقبائل أخرى متحملا الديات .

أبوا أن يملونا ولو أن أمنا
تلاقى الذى يلقون منا ، لملت

هموا أسكنونا فى ظلال بيوتهم
ظلال بيوت أدفأت وأظلت

وقال سعيد بن المسيب « كان أبو بكر شاعرا وعمر شاعرا وعلى أشعر الثلاثة » (١) وهو يقصد أن كل واحد منهم لابد قد نظم بضعة أبيات فى مناسبات مختلفة .

الخليفة الثانى : الفاروق عمر : أما الخليفة العادل فله مع الشعر والشعراء مواقف عديدة مشهورة ، وله فيه وفيهم أقوال حكيمة مأثورة ، كان يسأل وفود القبائل عن شعرائهم ، ويستنشدهم ، ويبدى آراءه فيما يسمع ، وكثيرا ما كتب لولاته على الأمصار يسألهم عن الشعراء وما نظموه من جديد الشعر ، ويروى أنه ربما سهر الليالى يصغى إلى الشعر حتى إذا حان وقت الفجر طلب تلاوة القرآن .

آراؤه فى الشعراء : كان يفضل زهير بن أبى سلمى ، معللا تفضيله بما يعكس تذوقه للشعر ، وعلمه بمقوماته ، يقول « كان لا يعاظل فى الكلام ، وكان يتجنب وحشىّ الشعر ، ولم يمدح أحدا إلا بما

(١) العقد الفريد جـ ٣ صـ ١٠٣

فيه . »(١) وربما عكست الجملة الأخيرة حرصه على آداب الإسلام الذى يدعو إلى القول الصادق ، وينهى عن النفاق والمراءاة .

وقال لوفد غطفان حين سمع قول النابغة الذبيانى :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة

وليس وراء الله ـ للمرء ـ مذهب

قال : « هو أشعر شعرائكم »(٢)

ولأن زهيراً اشتهر بمدح هرم بن سنان ، فقد طلب المأمون من أحد أولاد هرم ذات مرة : أنشدنى بعض ما قال فيكم زهير . فأنشده . فقال : لقد كان يقول فيكم فيحسن ، قال : يا أمير المؤمنين ، إنا كنا نعطيه فنجزل ، فقال عمر ـ رضى الله عنه : ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم »(٣)

وقال رضى الله عنه لابن عباس يوما « أنشدنى لشاعر الشعراء الذى لم يعاظل بين القوافى ، ولم يتبع وحشى الكلام .

قال : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قل : زهير ، فلم يزل ينشده إلى أن برق الصبح »(٣)

---

(١) العصر الجاهلى : د . شوقى ضيف ص ٢٢٦

(٢) الشعر والشعراء ص ٧٣

(١) المرجع السابق ص ٧٣

أقواله في الشعر : قال لابن له : « يا بني : انسب نفسك تصل رحمك ، واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك ، فإن من لا يعرف نسبه لم يصل رحمه ، ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد حقا ، ولم يقترف أدبا » (١)

ومن أقواله « الشعر جذل من كلام العرب ، يسكن به الغيظ وتطفأ به الثائرة ، ويبلغ له القوم نادبهم ، ويعطى به السائل »(٢).

وجاء في البيان والتبيين قوله « من خير صناعات العرب : الأبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته ، يستنزل بها الكريم ، ويستعطف بها اللئيم »(٣)

وقال أيضا : رووا من الشعر أعفه ، ومن الحديث أحسنه ومن النسب ما تواصلون عليه وتعرفون به ، فرب رحم مجهولة قد عرفت فوصلت ، ومحاسن الشعر تدل على مكارم الأخلاق ، وتنهى عن مساويها »(٤)

وكتب إلى أبي موسى الأشعري — واليه على البصرة — يقول :

---

(١) الأدب في عصر النبوة والراشدين ص ٢٨٨

(٢) العقد الفريد جـ٣ ص ١٠٢

(٣) البيان والتبيين جـ ٢ ص ٢٨٨

(٤) دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي ص ٤٩

« مر من قِبَلك بتعلم الشعر ، فإنه يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الانساب » (١)

وروى الجاحظ ، قال « كتب عمر بن الخطاب إلى ساكنى الأمصار: « أما بعد ، فعلموا أولادكم الفروسية ، وروهم ما سار من المثل ، وحسن من الشعر » (٢)

موقفه مع الشعراء : كان لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب مواقف كثيرة مع عدد من الشعراء ، وتلك المواقف لها وجوبها ، قد يتسرع المغرضون فيأخذون بأحد الوجهين ، ويلوون أعناق الكلمات كى يثبتوا عداء الخليفة العادل للشعر وللشعراء ، ويغمضون العين بإصرار وعمد عن الوجه الآخر للموقف لأنه يهدم رأيهم ، ومن ذلك موقفه مع الحطيئة بعد قصة ترويها كتب الأدب القديمة والحديثة ، هجا الحطيئة رجلا فاضلا سيدا فى قومه هو الزبرقان بن بدر بأبيات منها :

ما كان ذنب بغيض أن رأى رجلا
ذا حاجة ، عاش فى مستوعر شاس
جاراً لقوم أطالوا هون منزله
وغادروه مقيما بين أرماس
ملوا قراه وهرّته كلابهم
وجرحوه بأنياب وأضراس

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين ص ٢٨٩
(٢) المرجع السابق ص ٢٨٨

دع المكارم ، لا ترحل لبغيتها
واقعد ، فأنت الطاعم الكاسى

فشكاه إلى أمير المؤمنين الذى قال بعد أن سمع الأبيات « ما أعلمه هجاك، أما ترضى أن تكون طاعما كاسيا ؟ قال : إنه لا يكون فى الهجاء أشد من هذا »(١) .

وأرسل عمر إلى حسان بن ثابت يسأله، فقال لم يهجه ، ولكن صلح عليه ، فحبسه وقال « يا خبيث ، لأشغلنك عن أعراض المسلمين » فاستعطفه الحطيئة وهو فى الحبس بأبيات يذكر فيها أولاده الصغار :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ
زغب الحواصل ، لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة
فاغفر عليك سلام الله يا عمر
أنت الأمين الذى من بعد صاحبه
ألقت إليه مقاليد النهى البشر

---

(١) المستوعر : مكان صعب غليظ ، الشأس : المرتفع الغليظ الحون : من الهوان ، الأرماس : القبور ، هرته : نبحته ونهشته . (الشعر والشعراء ص ٣٠٢) .

لم يؤثروك بها ، إذ قدموك لهـــا
لكن لأنفسهم كانت بهـــا الإثر

فسمعت عينا الخليفة وأطلقه آخذاً عليه عهداً بالكف عن الهجاء ، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم ، وإلى ذلك يشير الحطيئة بقوله :

وأخذت أطراف الكلام فلم تدع
شتما يضر ولا مديحـــا ينفع
وحميتُ عرض اللئيم فـــلم يخف
ذمّي وأصبح آمنـــا لا يفزع

« ومهما يكن من شيء فلقد حوكم الحطيئة هذه المحاكمة العلنية العادلة ، ونال ذلك العقاب المستحق على هجائه للزبرقان ليكون عبرة له ، ورادعاً له عن التعرض لأعراض الناس ، وأخذت عليه المواثيق ألا يعود ، وقطع عليه عمر معاذير الفقر بمنحه ثلاثة آلاف درهم ، إن صحت رواية ذلك »[1] .

موقفه مع النعمان بن عدي : كان النعمان والياً على ميسان في البصرة ، ونظم أبياتاً يقول فيها :[2]

---

(١) الحطيئة : د . درويش الجندي ص ٩٣
(٢) نحو أدب إسلامي معاصر ص ١١٧

ألا هـــل أتى الحسناء أن حليلها
بحيسان ، يسقى فى زجاج وحنتم[1]
إذا شئت غنتنى دهاقين[2] قرية
ورقاصة تجـــزو على كل منهم
فإن كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى
ولا تسقنى بالأصغـــر المتثـــلم
لعـــل أمـــير المؤمنين يسوؤه
تنادمنا فى الجوســـق المنهدم

فلما بلغ ذلك الخليفة عمر قال : « لى والله إنى ليسوؤنى ذلك ، ومن لقيه فليخبره أنى قد عزلته » . وكتب إليه بعزله ، فلما قدم عليه قال : « والله يا أمير المؤمنين ، ما شربتها قط ، وما ذاك الشعر إلا شىء طفح على لسانى » فقال عمر : أظن ذلك ، ولكن والله لا تعمل لى عملا أبدا وقد قلت ما قلت » ، وواضح أن عقاب أمير المؤمنين كان بسبب جهر النعمان بالمحرمات حتى ولو لم يرتكبها ، ثم تطاوله على الخليفة بما يسوؤه ، وهو ـ النعمان ـ كان واليا ، أى قائدا ومثلا لعامة الأمة ، فلو ترك فى منصبه بعد زلته لشجع غيره على الفعل بعد القول ، وما كان عمر ليتراخى فى الحق .

---

(١) الحنتم : الجرة الخضراء .

(٢) دهاقين : جمع دهقان وهو القوى صاحب السلطة والمال والخبرة ، الجوسق : كل بنيان عال شامخ .

موقفه مع حسان بن ثابت : روى أن حسان وقف ينشد شعراً في مسجد الرسول - ﷺ - أيام عمر ، فلما سمعه ، أخذ بأذنه وقال : أرغاء كرغاء البعير ؟! فرد عليه حسان بقوله : دعنا عنك يا عمر ، فو الله لتعلم أني كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك ، فلا يغير علي ، فيقول له عمر : صدقت ، ... وتنتهي القصة بقول عمر للمسلمين من الأنصار ، إني كنت نهيتكم أن تذكروا شيئا مما كان بين المسلمين والمشركين دفعا للتضاغن عنكم ، فأما إذا أبوا فانشدوه واحفظوه »(١)

موقفه مع لبيد : يعد لبيد بن ربيعة من كبار شعراء الجاهلية وأدرك الإسلام ، فقدم على رسول الله في وفد من بني كلاب ، وقد حسن إسلامه وتخلى عن كثير من الشعر الذي يأباه الدين ، ولذا قل شعره ، ويقال إن عمر بن الخطاب استنشده بعض ما قاله في الإسلام ، فقرأ سورة البقرة وقال « ما كنت لأقول شعرا بعد إذ علمني الله سورة البقرة وآل عمران ، فزاده عمر في عطائه خمسمائة درهم »(٢)

وقد يظن أن الخليفة زاد عطاءه لأنه ترك الشعر ، فكأنه يحض غيره على ذلك ، لكن الحقيقة أن عمر بن الخطاب قد زاد عطاء لبيد لتقواه وحفظه القرآن وليس لتركه الشعر وإلا لزاد في عطاء بقية المسلمين الذين لا ينظمون شعرا .

---

(١) دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي : ص ٤٩

(٢) المرجع السابق : ص ٥٠

تأثره بالشعر : « سئل مالك بن أنس : من أين شاطر عمر ابن الخطاب عماله ؟ فقال : أموال كثيرة ظهرت عليهم ، وأن شاعراً كتب إليه يقول :

نحج إذا حجوا ونغزو إذا غزوا
فأنى لهم وفر ، ولسنا بذى وفـــر
إذا التاجر الهنـــدى جاء بفارة
من المسك ، راحت فى مفارقهم تجرى
فدونك مال الله حيث وجـــدته
سيرضون ـــ إن شاطرتهم ـــ منك بالشطر

قال : فشاطرهم عمر أموالهم »(١) .

« ويروى أن المخبل السعدى جزع جزعا شديدا حين هاجر ابنه شيبان لحرب الفرس مع سعد بن أبى وقاص ، وكان قد أسنّ وضعف فافتقد ابنه ، فلم يملك الصبر عنه ، ومضى إلى عمر فأنشده أبياتا يقول فيها :

إذا قال صحبى يا ربيع ألا ترى
أرى الشخص كالشخصين وهو قريب

---

(١) العقد الفريد : جـ ٣ صـ ١٠٢

ويخبرني شيبان أن لن يعقني

تعق إذا فارقتني وتحوب(١)

فرقّ له عمر ، وكتب إلى سعد يأمره برد شيبان إلى أبيه ولم يزل عنده حتى مات . . . . وقد فزع إليه أيضا أمية بن حرثان بن الأسكر حين هاجر ابنه كلاب إلى حرب الفرس ، وكان مما أنشده فيه :

لمن شيخان قد نشدا كلابا

كتاب الله إن حفظ الكتابا ؟

إذا هتفت حمامة بطن وَجٍّ

على بيضاتها ، ذكرا كلابا

تركت أباك مرعشة يداه

وأمك ما تسيغ لها شرابا

فأمر بإشخاصه إليه . وممن فزع إلى عمر أيضا في ذلك أبو خراش الهذلي حين هاجر ابنه مع المجاهدين إلى الشام ، وقد أنشده شعراً مؤثراً ، فأمر برده عليه وأن لا يغزو من له أب هرم إلا بعد أن يأذن له راضيا بهجرته (٢) وكل ذلك يدل على تقدير الخليفة العادل

---

(١) تحوب : تخطىء وتأثم

(٢) العصر الاسلامي : د . شوقي ضيف ٥٦ ، ٥٧

للشعر والشعراء وتأثره بالأبيات يرسلها الرجل بين يدى حاجته - كما مر بنا .

أما ما يثار من شبهات حول موقفه من الحطيئة ثم من لبيد وما يقال من أنه غضب على أبي موسى الأشعرى ولامه لأنه كافأ الحطيئة لمدحه إياه ، وادعاء أنه أنقص خمسمائة درهم من عطاء الأغلب العجلى لقوله حين سئل عن شعره[1] :

لقد سألت هينا موجودا أرجزا تريد أم قصيدا ؟

فهو نوع من التحامل أو متابعة لآراء غير دقيقة وروايات ناقصة ، وقد عرفنا حقيقة موقفه مع الحطيئة ، ويكفى أنه أخرجه من السجن بعد أبياته عن أولاده ، وأعطاه ما يغنيه عن السؤال بالمدح والاسترفاد بالهجاء ، كما فهمنا سر تصرفه مع لبيد الذى عرف عنه الكرم وإطعام الناس وقت الصبا ، وهى ريح شديدة البرودة ، تمنع الناس من السعى لمعايشها . ولومه لأبى موسى إنما كان حرصا على مال المسلمين من أن يبدد طمعا فى الثناء والمديح .

وإنقاص عطاء الأغلب لا يرجع قطعا إلى كتابة الشعر ، فلابد أن بقية القصة تعطى تفسيراً للأمر ، والشعراء فى عهد عمر - رضى الله عنه - كانوا كثيرين ولم نسمع عن إنقاص عطاء أحد آخر غير الأغلب .

---

(١) تاريخ الشعر العربى ج ١ ص ٥٨

عثمان بن عفان : تتفاوت آراء الدارسين فى الخليفة الثالث تفاوتا كبيراً ، فبينما نجد الدكتور عبد العزيز الكفراوى يقول عنه بعد اتهام عمر بن الخطاب بكراهية الشعر : «ولم يكن عثمان وعلى من بعده أقل منه سخطا على الشعراء وكراهية للشعر ، فقد ذكر الشماخ أن خوفه من عثمان وتنكيله بأمثاله هو الذى كان يمنعه من أن يمزق جلود أعدائه وذلك حيث يقول (١) للربيع بن علباء السلمى :

لولا ابن عفان ، والسلطان مرتقب
أوردت غبـــا من اللعباء جلمودا

على حين يقول الدكتور درويش الجندى : «وما يكاد عهد عمر ينتهى بسياسته الحازمة الصارمة ، ويأتى عهد عثمان بسياسته اللينة اليسيرة حتى نرى الحطيئة يتنفس الصعداء ،(٢) ثم يحكى عن مدح الحطيئة الوليد بن عقبة ـ والى عثمان على الكوفة ـ وكان ضعيفاً فى دينه ، يشرب الخمر ، ويلهو مع أصحابه بالغناء حتى الصباح ويذهب للصلاة سكرانا ، فلما أقيم عليه حد الشراب ، دافع الحطيئة عنه ومدحه(٣) .

ولكن شواهد أخرى ، وكذا منطق الأمور ، تنبىء عن أن الخليفة الثالث قد سار على نهج سابقيه ، فترك الشعراء مادامو ا ملتزمين بتعاليم الإسلام ، وتعرض لهم حين تهجموا على القيم ، واعتدوا

(١) تاريخ الشعر العربى : ص ٥٨
(٢) الحطيئة : ص ٩٧
(٣) نفس المرجع ص ٩٨

بألسنتهم على المحرمات . وما قاله الشماخ يدل على أن عثمان بن عفان — رضى الله عنه — قد اشتد على المجانين وحارجهم ، حفاظا على القيم الأخلاقية وحماية للأعراض، ويؤكد ذلك ما روى عن قصته مع ضابىء بن حارث البرجمى ، وهو شاعر من بنى غالب بن حنظلة ، وكان قد هجا قوماً هجاء سوء وفحش ، فشكواه إلى الخليفة « عثمان » الذى حبسه إلى أن مات (١)

على بن أبى طالب : أما الخليفة الرابع - ابن عم رسول الله والذى شهد له سعيد بن المسيب أنه أشعر من أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - فقد حفظت كتب السيرة وكتب الأدب شيئا غير يسير من شعره ، فيقال إنه كان إذا هم بالمبارزة أنشد من نظمه :(٢)

أى يومىّ من الموت أفـــرّ
يوم لا يُقـــدر ، أم يوم قُدِر ؟
يوم لا يُقـــدر لا أرهبـــه
ومن المقدور لا ينفى الحـــذر

وما قاله من شعره أيضا يوم صفين :

---

(١) الشعر والشعراء : ص ٢١٨

(٢) العقد الفريد جـ ٢ ص ١٠٠

To: www.al-mostafa.com

أمن راية سـوداء يخفق ظلها
إذا قيل قدّمها حصين ، تقـدما
فيوردها فى الصف حتى يردهـا
حياض المنـايا تقطر السم والدما
جزى الله عنى والجـزاء بكفه
ربيعة خيرا ، ما أعف وأكرما

وكان المسلمون يعرفون فى على شاعريته ، بدليل أنهم حين اشتد هجاء شعراء الشرك للنبى وصحبه ، ذهبوا لعلى وقالوا له : « اهج عنا القوم الذين يهجوننا» فقال : « إن عليا ليس عنده ما يراد فى ذلك »(١) وهو لا يقصد بالطبع ضعف المقدرة الفنية وملكة الشعر ، ولكنه تحرج من قول الهجاء ـ خاصة فى قريش وهم قومه وقوم رسول الله ـ أو ربما كان لا يقول شعر الهجاء عامة ، فليس كل شاعر قادراً على جميع فنون الشعر .

وكان يفضل من الشعراء امرأ القيس ويقول « كان أحسنهم نادرة وأسبقهم بادرة »(٢) .

وقد استعان بالشعراء فى معاركه مع بنى أمية لإثارة الحماس وتحريك الهمم .

ويروى أن أعرابيا شكا إليه فقره فأمر غلامه ـ قنبر ـ أن يعطيه

(١) دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى : ص ٤٠ ، ٤١
(٢) دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى : ص ٤٠ ، ٤١

حلة ، فمدحه بقوله : (١)

كسوتنى حلة تبلى محاسنها
فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن الثناء ليحيى ذكر صاحبه
كالغيث يحيى يداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر فى عرف بدأت به
فكل عبد سيجزى بالذى فعلا

فقال على: «يا قنبر: اعطه خمسين دينارا» ثم قال له: أما الحلة فلسنا لتلك وأما الدنانير فلأدبك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : أنزلوا الناس منازلهم، وواضح من هذه القصة أن عليا كرم الله وجهه عرف للرجل قدره حين قال الشعر فبجله وأعطاه ما يليق بشاعريته . لكن ذلك لا يمنع أن يوجّه من يحتاج للتوجيه إلى التأدب بآداب القرآن الكريم ، فيروى أنه سمع « جرير بن سوم التميمى » يتمثل بقول « الأسود بن يعفر النهشلى » وهما يمران على مدائن كسرى :

جرت الرياح على محلّ ديارهم
فكأنما كانوا على ميعاد
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة
فى ظل ملك ثابت الأوتاد
فإذا النعيم وكل ما يلهى به
يوماً ، يصير إلى بلى ونفاد

فقال على : فلم لم تقل كما قال الله عز وجل ﴿ كم تركوا من جنات

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين : ص ٢٨٩

وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين)[1] ؟ .

وبعد .. إن ذلك العرض لمواقف الراشدين وأقوالهم فيما يخص الشعر والشعراء يثبت أنهم ساروا على نهج الرسول الكريم وبهدي من القرآن ، فلم يرفضوا الشعر تماما ولم يقبلوه على علاته ، ولا هم عادوا الشعراء جميعا، ولا تركوهم وأهواءهم المتقلبة ، إنما كان الموقف العادل ترحيبا بالطيب ونهيا عن الخبيث ، ثوابا للمحسن وعقابا للمسيء ؛ كان حثا على الخير الصالح وزجرا عن الشر الطالح، وذلك ما يتفق مع آيات القرآن وأحاديث الرسول ومواقفه صلوات الله وسلامه عليه .

خلاصة موقف الإسلام من الشعر والشعراء : لا ريب أننا بعد هذا العرض المسهب لموقف القرآن الكريم والسنة النبوية ، ثم الخلفاء الراشدين ، نستطيع أن نقول مطمئنين : إن الإسلام لم يعارض الشعر ولم يذم الشعراء ، وإنه ليس من المستساغ عقلا ادعاء أن الرسول ﷺ كره الشعر وأعرض عن الشعراء ، فلا يمكن لدعوة عالمية ترسم منهاجا جديدا لحياة الإنسانية كلها ، لا يمكن لهذه الدعوة أن تسقط الشعر من

---

(١) الآيات من سورة الدخان ٢٥ ، و ٢٦ . والمقصود من توجيه الخليفة ألا يأسى على ضياع ملك الفرس ـ وهم كافرون ـ لأن الله أورثه لمن هو خير منهم ـ للمسلمين ـ .

حسابها ، سواء كان مجالا للإبداع الفنى أو وسيلة للدعوة ، أو سلاحا للجهاد ، وقد مر بنا كيف حث الرسول المصطفى شعراء المسلمين ، ودعاهم إلى جهاد القول وسهام الكلام وسيف اللسان ، وذلك بعد أن فتح شعراء مكة المشركين تلك الجبهة الجديدة لتواكب جبهة الرماح والسيوف .

أما ما ورد من تهديد القرآن لبعض الشعراء ونهى الرسول عن قلة من الشعر أو ضيقه بقليل من الشعراء ، وما عرف - تاريخيا - من مطاردة الخلفاء ، كعمر بن الخطاب ، أو عثمان بن عفان ، رضى الله عنهما للحطيئة والنجاشى وغيرهم ، فإنما كان لما تناوله هؤلاء من أفكار ومعانى تنافى الخلق القويم ، كما تؤذى الفطرة السليمة ، وتناقض مبادىء الإسلام ، وبفضل هذا التوجيه القرآنى والنبوى تخلص الشعر العربى من شوائب المالق والنفاق فى المديح الكاذب ، ومن أدران الهجاء القبيح ونيل الأعراض ، ومن الهيام فى أودية الزهو والخيلاء بالفخر المتعالى ، ومن خدش الحياء فى الغزل الفاحش ، ومن أذى الخلق بوصف الخمر ولعب الميسر ومجالس اللهو والمجون ، إنه التوجيه للشعر وليس كبته ، والقضاء عليه ، وهو التهذيب للشعراء لا خنقهم وتكبيلهم .

ويمكن أن نوجز موقف الإسلام جملة من الشعر والشعراء فى النقاط التالية :

(١) ليس فى القرآن الكريم تحريم قاطع صريح لنظم الشعر ،

وليس فيه تنديد به أو تحقير له إلا حين يتنكب طريق الهدى ويحيد عن الخلق والدين .

(٢) كذلك لا يعادى القرآن الشعراء ولا يذمهم أو يهددهم إلا إذا انحرفوا عن الحق وأساؤا للغير .

(٣) تركيز القرآن على نفى صفة الشاعرية عن الرسول وصفة الشعر عن القرآن هدفه تنزيه الرسول - ﷺ - عن أن يأتى بما لم يوحى إليه وينزل عليه ، يقول جلّ شأنه فى سورة الحاقة ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ ويقول سبحانه فى سورة النجم ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾ وكذلك تنزيه القرآن عن أن يكون كلام بشر ، وإنما ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾(١) .

(٤) تتفق السنة المطهرة مع القرآن الكريم فهى ترحب بالشعر وتفسح للشعراء مكانا ، إذا انبعث من مبادىء الدين والأخلاق ، وابتعد عما يغضب الله ورسوله .

(٥) الأحاديث الواردة فى النهى عن بعض الشعر ، ولعنه وكذلك ذم بعض الشعراء ، حددت المنهىّ عنه والمكروه بأنه ما كان متضمنا لهجاء مقذع أو أذى للرسول والمسلمين أو صد عن سبيل الله .

(٦) سماع الرسول — صلوات ربه عليه — للشعر واستنشاده ، ودعائه لبعض الشعراء وإثابتهم دليل واضح جلىّ على موقف السنة — وهى تفسر القرآن — موقف الرضى والترحيب .

---

(١) الواقعة ، آية ٨٠

(٧) اتخاذ الرسول للشعر سلاحا جاء بعد أن بدأ شعراء قريش المعركة الكلامية ، ورموا الرسول والمسلمين بسهام القول المسموم ، فهى الضرورة التى تبيح المحظورا ، وحين فتحت مكة ، وانتهت المعارك الكلامية كف الشعراء المسلمون عن الهجاء ومنعه الرسول وخلفاؤه.

(٨) سار الخلفاء الراشدون — رضى الله عنهم — على نهج القرآن والسنة فاستمعوا للشعر واستنشدوه ، لكنهم حاربوا الشعراء الهجائين وأخذوهم بالشدة حتى يحافظوا على مبادىء الإسلام ووحدة المجتمع.

فالإسلام — ممثلا فى القرآن الكريم والسنة المشرفة وسلوك الخلفاء — هيأ للشعر مكانا ، ورحّب به فنا إنسانيا مهذبا ، يعبر عن النفس والحياة ، ويدعو إلى الحق والخير والجمال ، كذلك فإن الإسلام شجع الشعراء ، ودعاهم لأداء رسالتهم فى سبيل نشر العقيدة ، وحماية الأخلاق ، وبناء المجتمع ، لكن الإسلام أيضا نهى عن تحول الشعر إلى إيذاء للمسلم فى عرضه ودينه وخلقه ، وطارد الشعراء إذا صاروا حربا على الدين أو الأخلاق ، وحين يمزقون وحدة المجتمع .

رابعا : حالة الشعر فى عهد النبوة والراشدين

يتفرع عن قضية الإسلام والشعر، قضية أخرى ثار حولها الخلاف وتعارضت فيهـــا الآراء ، وهي الحكم على الشعر في عصر النبوة والراشدين : أكان خاملا ضعيفا ؟ أم قويا نشيطا ؟

وكما وجدت النفوس المريضة — مستشرقين وعربا متفرنجين — مجالا لطعن الإسلام في موقفه من الشعر ، حين تفصل الأحداث عن ظروفها ، وتبتر النصوص من مواقعها ، كي تغير الحقائق ، فكذلك تجد تلك النفوس مجالا لإثارة الغبار حول أضـــواء فترات تاريخنا الإسلامي: عصر الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين رضوان الله عليهم ، فتدعي موات الشعر وركوده ، وتوجز الحديث عنها كي تغيم الرؤية .

لقـــد اعتدنا أن نقسم عصورنا الأدبية ، فندمج هذه الفترة الباهرة ، مع فترة حكم الأمويين ، بحجة قصرها ، وتكفي عادة في مدارسنا بتدريس نص مقتضب لحسان بن ثابت ، ليمثل العصر النبوي ، وآخر لكعب بن زهير ثم نمضي لنستوعب أدبيا ما يمثل جزئيات التاريخ والفرق السياسية الطارئة »(١) وقد لا يستغرق ذلك من الدارسين أكثر من صفحات قليلة ، جلها اتهام باطل للاسلام بأنه خنق الشعر وضيق على الشعراء ، ثم يفردون بقية الكتاب الضخم لعصر الأمويين في تفصيل لا مزيد عليه .

---

(١) شعر عصر صدر الاسلام : د . محمد عادل الهاشمي ص ٥

والأصل أن نعتز بفترات الخصوبة والانتصار فى تاريخنا ونذهب الحديث عنها ، عسى أن نخلق فى النشء قـــدوة ومثالا ، ونزيده عزيمة ونضالا .

فكان الأولى استعراض نماذج من الشعر الإسلامى الذى واكب الدعوة مسجلا أحداثها ، متغنيا بانتصاراتها ، مناقضا أعداءها ، وأن نشيد بدور الشعراء فى هذه الفترة . على أن بعض الدارسين المعاصرين قد تدارك الموقف فخص عصر النبوة والراشدين بكتب مستقلة(١)

وحين نستطلع رأى مؤرخى الأدب — وهم كثر — حول شعر تلك الفترة فإننا نفاجأ بتعارض الآراء ، وتناقض النصوص ، حتى لنوشك ألا نهتدى للحقيقة والصواب .

ويبدو أن القدماء كانوا ينظرون إلى الجزئيات فيحكمون على كل منها منفردة . وجاء المحدثون فأخذوا عنهم نتفاً من النصوص تخدم آراءهم ، فمن قال بضعف الشعر آنذاك وجد ما يؤيده فى كلام ابن سلام والأصمعى وابن خلدون وابن قتيبة ، ومن قال بقوته ونهضته عثر — أيضا — على إثباتات من كلام هؤلاء .

بل إن سرت عدوى النظرة الجزئية إلى بعض المحدثين ، فوجدناهم

---

(١) مثل الدكتور صـــلاح الدين الهادى : الأدب فى عصر النبوة والراشدين .

يذهبون من اليمين إلى اليسار بين صفحة وأخرى (١) .

ومن هنا رأيت الطريق الأمثل أن أعرض جميع الآراء وأناقشها رأياً رأياً ، ثم نتعرف على نماذج كافية ـ من شعر تلك الحقبة ، نماذج من كل الأغراض التى طرقها الشعراء وقتذاك ، وفى مختلف البيئات العربية ، كى نصل فى النهاية ـ من المناقشة والاستعراض النصى إلى أكثر الأقوال قربا من الحقيقة ، وإنصافا للاسلام وللشعر .

أولا : حجج القائلين بضعف الشعر : تتنوع أدلة وحجج القائلين بضعف الشعر فى عصر النبى الكريم وخلفائه الراشـــدين ، ولعلنا لا نبعد عن الصواب حين نبدأ بأقوى تلك الحجج فى نظر أصحابها ، وأكثرها دورانا على الألسنة ، حتى يمكن القول بإجماعهم عليها ، وهى الأدلة والحجج المتصلة بالإسلام فى موقفه من الشعر .

وموجز تلك الحجج :

(١) الموقف العنيف الذى وقفه القرآن من الشعر .

(٢) محاربة الرسول والقرآن للشعر .

(٣) تعارض قيم الإسلام مع الشعر الجاهلى ، فقد أبطل أشياء وهذب طبائع ، فكان فى ذلك خنقا للشعر .

---

(١) كتاب تاريخ الشعر العربى للدكتور عبد العزيز الكفراوى ص ٥٣ يذهب إلى إذكاء الدعوة الاسلامية للشعر ، وفى ص ٥٥ يرى أن الإسلام حارب الشعر وأحب أن يقضى عليه .

(٤) انبهار العرب بالقرآن وانصرافهم عن الشعر .

ولنبدأ فى تفصيل ما أوجزنا : يطالعنا حول الحجة الأولى قول الأستاذ الدكتور عبد العزيز السكفراوى : « وإنما وقف القرآن من الشعراء هذا الموقف الصريح العنيف لأنهم صدوا عن سبيل الله ، وحاربوا رسوله ، وآذوه فى نفسه وعرضه ، ومن يدرى . . لعل القرآن كان يرى فى الشعر منافسا يشغل بعض الناس عن تمام الانصراف إليه ، فأحب أن يقضى عليه قضاء نهائيا .

هذا هو الموقف العام للقرآن ثم جاءت التعاليم الدينية والروح الإسلامية بتفاصيل وتشريعات تكيل للشعر والشعراء ضربات أخرى غير مباشرة »(١) .

ولست أدرى : أيبغى الأستاذ الباحث من هذا الكلام طمس الحق أم هو يجهله ؟ إن الفقرة الأولى لا تحتاج إلى رد ؛ إذ أن الدارس قد وقف عند قوله تعالى ﴿ لا تقربوا الصلاة . . ﴾ فهو لم يكمل قراءة آية الشعراء حيث يقول المولى عز وجل ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . ﴾ وهل كان أمام القرآن إلا أن يقف هذا الموقف من حاربوا الله ورسوله ، وصدوا عن سبيله ؟ وهل يعاقب صاحب الجرم إن كان غير شاعر ، ويغفر له إن كان شاعرا ؟ كيلا يتهم القرآن بكراهة الشعر والقضاء عليه ؟

أما الفقرة الثانية التى تتصور أن القرآن ـ لعله ـ رأى فى الشعر

---

(١) تاريخ الشعر العربى ، ج ١ ، ص ٥٥

منافساً ، فهو القول الغريب الذى لم أصادفه عند دارس آخر ، فأى وجه للمقارنة بين القرآن ـ كلام الله ووحيه ـ وبين الشعر ـ الذى مهما بلغ من جمال وكمال فإنه كلام بشر ناقص خطاء ؟ ثم أى وجه للمقارنة بين كتاب تشريع ودين للبشرية جمعاء ، حاضرا ومستقبلا ، وبين قصائد تعبر عن حالات نفسية وعاطفية ، فى لحظات محدودة ، مهما تناهت فى قدرتها التعبيرية فإنها خاصة مؤقتة ؟

ثم أين ذهب القرآن بعد ذلك بقوى الشعر — حسب رأيه — فى العصر الأموى ؟ ألم يكن باقيا يهدر الشعر والشعراء ؟ وأين ذهبت تعاليم الشريعة ، هل انتهى الإسلام ـ قرآنا وتشريعا بعد عهد الراشدين ؟

وإذا كان الإسلام قد وجه ضربات غير مباشرة للشعر والشعراء ، فكيف نفسر ذلك الكم الهائل ـ وسوف يشير إليه الأستاذ نفسه ـ كيف نفسر ذلك الكم من شعر الحواضر والبوادى فى جزيرة العرب فى صدر الإسلام ، والذى يزحم كتب الأدب والتاريخ والسير والمغازى وكتب الصحابة ؟

وهناك رأى فى هذا المجال يقول إن نفى القرآن لشاعرية النبى صلوات الله وسلامه عليه ، جعل الناس يظنون أن الشعر من أعراف الجاهلية وتقاليدها ، يحسن التخلى عنه مع بقية التقاليد الأخرى التى حاربها الإسلام .

وهى حجة تسقطها مواقف الرسول وأقواله فى الشعر والشعراء وسماعه للشعر واستنشاده ، وإثابته عليه ، وطلبه من الشعراء المسلمين نظم الشعر الذى يناضلون به عن الدعوة ، ويردون كيد شعراء الشرك ، فهل يفعل الرسول كل ذلك ويظن الناس أن الشعر تقليد جاهلى ؟.

وقيل أيضا فى هذا الشأن : إن أعداء الدين قد حاربوه بالشعر ، فلما انتصر الإسلام وعم نور الله ، كرهته العرب — أى الشعر — فتناسوه وامتنعوا عن روايته ، وذلك إن صدق فإنما يصدق على شعر المشركين الذى تعرض للرسول الكريم والدين ، ولكن ماذا عن الشعر الآخر ؟ .

وأضعف الشعر فى رأى آخرين أنه كان قبيل الإسلام قد اتجه إلى الخوض فى العقائد والقول فى الأديان — وذلك يحدث للشعر إذا بلغ الشيخوخة — أى أنه قد هبط مستواه من ناحية ، وصار مخالفا للإسلام من ناحية أخرى .

وما قاله الشعر فى العقائد والأديان فيه نظرات صائبة أقرها الرسول وأعجب بها ، مثل بعض أشعار أمية بن أبى الصلت ولبيد وزهير ، وفيه خرافات وأباطيل عاملها الإسلام كغيرها من القيم الجاهلية المنهى عنها ، وذلك لا يبطل الشعر جملة ، ومسألة هبوط المستوى سوف تناقش فى موضع آخر عند الكلام عن انتهاء عصر الفحول كما قيل .

ثانيا : محاربة الرسول والقرآن للشعر : كان الشعر الجاهلي جاهلا لإظهار العصبية القبلية والاعتداد بالأنساب والأحساب ، وقد حارب الإسلام ذلك ، فكان من الطبيعي ألا يشجع الرسول الشعر والشعراء — هكذا يرى الدكتور « درويش الجندي » ، ثم يضيف إشارته إلى قوله تعالى ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ... ﴾

وأيضا ﴿ وما علمناه الشعر .. ﴾ وإلى قول الرسول ﷺ « لأن يمتلئ جوف أحدكم .. » ويعقب قائلا :

« فازور جانب المسلمين عن قرض الشعر وروايته ، على علمهم بأن الدين لم يكرهه على إطلاقه ، وإنما كره منه ذلك النوع الذي يمزق الشمل ويثير دفائن القلوب »(١)

وأظننا قد ناقشنا موقف القرآن والسنة بما فيه الكفاية ، والأستاذ الباحث نفسه يقول « إن الدين لم يكره الشعر على إطلاقه » فلماذا يزور المسلمون إذن عن قرض الشعر وروايته ؟ على كل سوف نرى من خلال استعراض الكم الكبير المتنوع للشعر الإسلامي أنهم لم يتوقفوا عن النظم ، أما الرواية فيثبتها ذلك التراث الشعري الهائل الذي نتداوله .

على أننا نسلم مع الدارس بأن الإسلام قد نهى عن الشعر الذي

---

(١) الحطيئة البدوي المحترف ص ٦٣

يمزق الأواصر ، ويفتت وحدة المسلمين ، لكنه نوع من الشعر وليس كل الشعر .

ويرى الدكتور « محمد عبد العزيز المراغى » أن الاسلام كان لا بد أن يعادى الشعر الجاهلى « بوصفه تجسيدا للقيم الجاهلية التى ارتبط بها ارتباطا عضويا دقيقا ، وصورها تصويرا صادقا بكل محاسنها ومساوئها » (١)

ولأن العرب كانوا يحيون شعرهم وينظرون حياتهم شعرا ، أى أنهم لا يفصلون بين الشعر والحياة ، لذلك فإن الإسلام حين يسعى لتغيير حياة العرب وسلوكهم ، فيجب عليه أولا أن يحارب الشعر الجاهلى باعتباره حاويا للقيم والمثل التى تحكم هذه الحياة وتوجهها .

وقد يفهم من ذلك أن الإسلام منع تداول الشعر الجاهلى وقضى عليه قضاء تاما ، حتى تمكن من تثبيت قيمه الجديدة ، مكان تلك التى يحويها الشعر .

وهو ما لم يحدث قط ، بدليل ما بين أيدينا من تراث الشعر الجاهلى ، ونحن لا نختلف مع الأستاذ الباحث فى أن الإسلام أتى بقيم تعارض قيم الجاهلية التى حواها الشعر ، غير أن وسيلة الإسلام ليثبت هذه القيم وتثبيتها ، لم تكن بهدم الشعر الجاهلى أو بمحاربته والقضاء عليه ، بل كانت بالإقناع والمثل والقدوة ، ولا ريب أن الاسلام عد

---

(١) قراءة فى الأدب الإسلامى والأموى ص ١٢

الشعر الجاهلي ميراثاً تاريخيا ، وسجلا لعهد مضى ، نغيّره ولكن لا نمحوه ، نتخلى عنه سلوكا ومعايشة ، ولكن لا نتخلى عنه تاريخا وحضارة .

وحقيقة أن الإسلام طارد كمّا من الشعر ومنع روايته ، حتى نُسي وضاع ، ولكنه شعر المشركين الذين هجوا رسول الله ﷺ ، وتناولوا أعراض المسلمين وصدّوا عن سبيل الله ، وهو ما نظم في سنوات الحروب بين مكة والمدينة .

ويكمل الأستاذ الباحث رأيه «بل إن موقف الاسلام من الشعر مرتبط بموقفه من الحياة الجاهلية ،التي جاء للقضاء على كثير من قيمها فهو إذا حارب قيمة من هذه القيم ، فإنه بالضرورة يحارب الشعر الجـــاهلي المجسد لها »(١) ثم يعدد طائفة من تلك القيم التي حاربها الاســلام كشرب الخمر والغزل الفاحش والهجاء المقذع والتنابذ بالألقاب ، والمدح طلباً للعطاء ، وكل ذلك تجسد في كم هائل من الشعر منع الاسلام رواجه وانتشاره» (٢)

أترى يقصد الأستاذ الباحث من محاربة الشعر المجسد لهذه القيم ومنع رواجه وانتشاره ، هل يقصد محوه أو نسيانه أم يقصد ألا ينظم الشعراء المسلمون على نسقه وفق موضوعاته ؟

إن كان القصد الأول فهو ما لم يحدث ، لأن الشعر الجاهلي باق

---

(١) المرجع السابق ص ١٤ (٢) المرجع السابق ص ١٤

ـ أغلبهم ـ رغم تحميده لتلك القيم والإشادة بها ، وإن كان يقصد ألا ينظم المسلمون مثل ذلك ، فهو ما كان لا بد أن يحدث تلقائيا ودون محاربة من الإسلام للشعر ، فالتغيير الجذرى الشامل الذى أحدثه الإسلام ، وتشربته النفوس عن اقتناع عقل ويقين قلب ، ذلك التغيير ، صبغ شعرهم بصبغته ، فأصبح ينبع ويصور هذه القيم الجديدة عفويا بلا إلزام ، اللهم إلا فى النادر حين لا يصل الاقتناع إلى العقل أو لا يبلغ إيمان القلب مرتبة اليقين لدى البعض القليل من الشعراء ، فينحرفون عن جادة الطريق ، وهنا يوجههم الرسول الكريم ، أو خلفاؤه الراشدون ، كما حدث فى المواقف المروية قبلا .

وإلى هذا الرأى يذهب الدكتور « صلاح الهادى » ، فبعد مناقشة موقف الإسلام من الشعر يعلق قائلا « نخلص من هذا إلى أن الإسلام لم يصرف المسلمين عن الشعر كله ، ولم يشغلهم عن إنشاء ما حسن منه ، أو إنشاده أو سماعه ، وأن الرواية الشعرية لم تتعطل كلها فى العهد النبوى »(١) .

لقد نشط الشعر الإسلامى فى حواضر الحجاز ـ مكة والمدينة والطائف ـ كما ظل الشعر فى البوادى ـ قبل أن ينتشر فيها الإسلام ـ ظل مصورا لحياتها مروجا لقيمها وأعرافها . وكان الأستاذ الدكتور « شوقى ضيف » قد سبق إلى هذا الرأى أيضا : « من الظلم للإسلام أن يقال إنه كف العرب عن الشعر ووقف نشاطه ، فقد كان ينشد على كل

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين : ص ٢٢٧

لسان ، وساعدت الأحداث على ازدهاره لا على خموله »[1] .

وفى مجال التعارض بين قيم الإسلام والشعر الجاهلى وما أدّى إليه هذا التعارض من محاربة الإسلام للشعر يدلى المستشرق « جب » بدلوه : « . . إن الإسلام والرسول الذى كان له شاعره الخاص به ، حسان بن ثابت ، قد وقفا منذ البداية موقفا معاديا للفن الشعرى ، ذلك أن هذا الشعر كان سجلا للقيم والمثل الجاهلية التى جاء الإسلام للقضاء عليها .

ويقول مرة أخرى « ومن هنا نبعت هذه الحقيقة التى تصدمنا وهى أن ظهور الإسلام لم يخلق شاعرا واحدا فى أمة الشعراء ، وأن تسجيل الشعر الإسلامى لأمجاد الإسلام - بالقياس إلى أمجاد الماضى فى الشعر الجاهلى - لا يتعدى قصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) وحتى هؤلاء الشعراء المعروفون الذين كانت لهم مكانتهم الشعرية فى الماضى ، قد أمسكوا عن قول الشعر ، فلا يعرف مثلا شعر إسلامى للبيد ، ذلك الشاعر العظيم الذى كان شعره ، كما تصوره معلقته المعروفة ، من خير أشعار الجاهلية جميعا على الرغم من أنه قد عاش بعد إسلامه ما يقرب من ثلاثين عاما »[2] .

أوشكت - والله - أن أتجاهل هذا النص لما فيه من سوء فهم

---

(١) العصر الإسلامى : ص ٤٦

(٢) قضايا الشعر فى النقد العربى : د . إبراهيم عبد الرحمن ص ٢٧٥

ومغالطات وجهل بالحقائق ، ولكنى خشيت أن يطلع عليه بعض الناشئة فيتأثر به أو يتصور صحته ، فلنتبع المغالطات إن : « جب » يناقض نفسه من البداية حين يدعى عداوة النبي للشعر ، واتخاذه شاعرا خاصا ، فكيف يكون ذلك ؟ أما زعم العداوة فقد دحضناه من قبل ، وأما أن الإسلام لم يخلق شاعرا واحدا ، ففيه ضيق فهم للبعد الزمنى ، لان الإسلام لا يعنى سنوات البعثة وحياة الرسول ﷺ فقط ، كما لا يعنى سنوات خلافة الراشدين أيضا ، وإنما الإسلام يعنى أكثر من أربعة عشر قرنا منذ ظهوره إلى الآن ، وإذا حدد حكمه بالسنوات الاولى ، أى عشر أو عشرين سنة ، فهى غير كافية طبعا لخلق شاعر فى أى مجتمع ، وليس فى المجتمع الإسلامى وحده ، متى يولد ويتثقف ، ومتى ينبغ شاعرا ؟

وفى القول كذلك جهل بالحقائق الأدبية والتاريخية ، فأين الشعراء المخضرمون الآخرون - غير حسان - كعبد الله بن رواحة وكعب بن زهير والنابغة الجعدى والأعشى الكبير ، ولبيد وكعب بن مالك والعباس بن مرداس والحصين بن الحمام المرى ، والشماخ بن ضرار ، ومعقم بن نويرة وأبو ذؤيب الهذلى والمخبل السعدى والنمر بن تولب وضرار بن الأزور وأبو محجن الثقفى والبريق بن عياض الهذلى وأمية بن حرثان الأسكر . . وغيرهم ؟ والجميع فى مطلع العهد الإسلامى ، فإذا تقدمنا قليلا وجدنا الرقيات والكميت وابن أبى ربيعة ، فماذا يقول « جب » حينئذ فى الشعراء الإسلاميين ؟

وما قاله عن تسجيل أمجاد الإسلام فى «بانت سعاد» سذاجة وجهل، لأن القصيدة كانت فى أول لقاء بين الشاعر والنبى عليه صلوات الله وسلامه، وكان كعب لا يبغى أكثر من الاعتذار وطلب العفو وإعلان التوبة والاسلام، وقدم بين يدى ذلك ببضعة أبيات تمدح الرسول والمهاجرين، دون أية إشارة لمجد الإسلام، ولبيد له شعر إسلامى ذكره كثير من الدارسين، وبقية الشعراء المعروفين لم يمسكوا عن قول الشعر، وإلا فلن ينسب هذا الكم الكبير من شعر صدر الإسلام؟

بقى فى مجالنا هذا مناقشة قول للأصمعى شاع فى كتب النقد وتاريخ الأدب للقدماء والمحدثين، ويدور حول ضعف شعر حسان، يقول: «الشعر نكد بابه الشر، فإذا دخل فى الخير ضعف، هذا حسان بن ثابت، فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره» وقال أيضا: «شعر حسان فى الجاهلية من أجود الشعر، فقطع متنه فى الإسلام»(١).

ولسنا لانستغرب هذا القول من أحد رواة الشعر الجاهلى المشاهير، وأحد اللغويين أيضا، لقد تمرس بذلك الشعر وتشربه، فتربى ذوقه عليه، وصار لا يحس جمالا إلا فيه، ولا يستمتع بفن سواه، إن ما يصدّر به مقولته من أن الشعر يحسن فى حالات الغضب ومواقف الثورة وحدة الانفعال، ويجعل ذلك فى كلمة نكد ثم شر، هذا

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧٢

الكلام يخالف الحكم النقدى الصائب، وهو أن قوة الشعر وأصالته ، أو ضعفه وزيفه وكذا جماله وتأثيره ، أو قبحه وهوانه ، كل ذلك إنما يرجع إلى مقدرة الشاعر وموهبته ، وامتلاكه لأدوات التعبير ، ثم إلى معاناته الصادقة التجربة ومعايشتها ، حتى يستطيع نقل انفعاله لمتلقيه ، وسواء كانت التجربة خيِّرة أو شريرة ، سواء كان العامل المؤثر فى النفس هاجس رحمة وتعاطف ، أو كان نزوعا للقسوة وفرضاً للقوة ، سواء كان حبا أم كراهية ، إقبالا أم إعراضا ، ترغيبا أم ترهيبا ، وأياً ما كان مصدره : داخليا أو خارجيا ، إن المعوّل هو التأثر بهذا العامل والانفعال به ، ثم إيصال هذا الانفعال للمتلقى بالتعبير عنه تعبيراً جميلا صادقا .وسوف نرجىء الحكم على شعر حسان فى جاهليته وإسلامه إلى دراسة مفصلة فيما بعد .

والآن نصل إلى حجة إعجاز القرآن وانبهار العرب به ، وهم القوم اللسنون البلغاء ، المعتدّون بفصاحتهم وبيانهم ،والقرآن أثر فنى جميل، بالغ من الرفعة أسمى ما يمكن أن ينتهى إليه أثر فى هذه اللغة ،(١) لحدث لهم ما يشبه الصدمة أو الإلجام وأثّر ذلك على بلاغتهم الفى ظهر مدى تواضعها وضآلتها إذا قيست بالقرآن ، ولذا كف البعض عن قول الشعر ، أما من واصل عطاءه ، فقد جاء شعره فى مستوى أقل جودة ، لإحساسه بالعجز وشعوره بالضآلة أمام هذا الطود الأشم

---

(١) تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى د . عبد العزيز الكفراوى ص ١١٣

الذى لا تتطاول اليه الأعناق » (١) .

وإلى هـــذا يذهب أيضا الأستاذ نجيب محمد البهبيتى : « فشغلوا بالقرآن ، وسكت الشعراء ليستمعوا إلى كلمة الله » (٢) .

ولعل المحدثين قد تأثروا خطى ابن خلدون فى قوله « ثم انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى ، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكنوا عن الخوض فى النظم والنثر زمانا ، ثم استمر ذلك ، وأونس الرشد من الملة ، ولم ينزل الوحى فى تحريم الشعر وحظره ، وسمعه النبى ﷺ وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ إلى دينهم منه »(٣) وقد فات المحدثين تحديد الفترة التى انصرفت فيها العرب ، وسكتوا عن الشعر ، كما حاول ابن خلدون ، وإن لم يكن دقيقا فى تحديدها . على كل يمكننا أن نناقش هذه الآراء مجتمعة ، فنسأل : على من يصدق حكم الانصراف عن الشعر ، أو نظمه بمستوى أقل ؟ إن كان على المسلمين فإنه غير جائز ، لأنهم يعرفون أن القرآن وحى إلهى وكلام أنزله الله ، فلا موضع للمقارنة بينه وبين كلامهم ، لقد اعتبروه مثلا أعلى ، يتأثرون به ويقتدون ببلاغته ، ولكنه ليس منافسا يتبارون معه .

---

(١) الخطيئة : د . درويش الجندى ص ٦٣

(٢) تاريخ الشعر العربى حتى آخر القـــرن الثالث الهجرى د . عبد العزيز الكفراوى ص ١١٣

(٣) مقدمة ابن خلدون : ص ٥٤٧

ولا وجه لإدخال شعراء المشركين فى القضيـــة لأنهم كابروا فى القرآن أصلا ، وأبوا الاعتراف بإعجازه وإبطاله ، بدليل ادعائهم أنه شعر أو سحر أو كهانة ، وتطاولهم بزعم القدرة على الإتيان بمثله ، بل ومحاولة ذلك ، وجاء التحدى الإلهى رداً على المكابرة ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هـذا القرآن ، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (١) . ثم إن هذه الحجة لا تتفق وما حفظ عن تلك الفترة من شعر للمسلمين وللمشركين .

وفى تصورى أن مقصد ابن خلدون هو معالجة الأمر على أنه ظاهرة اجتماعية ، فالجديد يبهر الناس ويشد انتباههم فترة ، يتحيرون فيها بين القبول والرفض حتى يألفوه ويقتنعوا به ، ويسهم فى تسييج عقولهم ويصبح جزءا من ثقافتهم ، فيتسرب إلى إبداعهم الأدبى . وهذه النظرة قد تفسر عدم تأثر الشعر تأثرا عميقا بقيم الإسلام ومبادئه فى السنوات الأولى للبعثة ، ولكنها لا تصلح لتبرير القلة أو الضعف .

ويعبر « ابن سلام الجمحى » عن القضية بكلمتى تشاغلت ولهت ، وذلك مكان انصرفوا وسكنوا « فجاء الإسلام فتشاغلت عن الشعر العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت (العرب) عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح ، واطمأنت

---

(١) سورة الإسراء : آية ٨٨

العرب بالأمصار ، واجمعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير»[1]

ولئن كان النص يعالج مشكلة ضياع الكثير من الشعر الجاهلي ، وسوف تتطرق من ذلك إلى مشكلة الوضع والتزييف أو الانتحال ، إلا أن اتكاء الكثيرين عليه كشاهد على انشغال العرب عن الشعر بالإسلام والجهاد ، جعل الدكتور شوقي ضيف يرد عليه [2] وأما قوله بأن العرب لهت عن الشعر وشغلت بالجهاد ، فينقضه ما تحمله كتب الأدب والتاريخ من منظوماته الكثيرة ومن أسماء ناظميه ، ويرد باحث آخر «فلو كان العرب قد تشاغلوا عن الشعر وروايته وفقد تأثيره على عواطفهم ووجداناتهم ، ما أهدر الرسول دم كعب من أجل شعره الذي هجاه به ، وما كان الرسول يسكافئه بأن يخلع عليه بردته »[3] .

ولنفس الكلام يصدق على مواقف عديدة غضب فيها الرسول ﷺ لشعر ، أو رضي وأثاب عن شعر . وما الغضب والرضى في هذه المواقف أمر شخصي فقط . ولكنه من أجل الجماعة» فلولا علم الرسول بأثر ذلك الشعر حين يتناقل على الألسنة في أنحاء الجزيرة ، لما غضب

---

(١) قضايا الشعر في النقد العربي . إبراهيم عبد الرحمن ص ٢٧٢

(٢) دراسات في نصوص وأدب العصر الإسلامي ص ٣٩

(٣) نحو أدب إسلامي معاصر : ص ١١٣

أو رضى ، واعتراض قريش طريق الأعشى كلما هم بلقاء الرسول فتثبطه عن ذلك بمال يغريه أو تهديد يثنيه ، إنما كان خوفا من أن يسلم ، فيصبح شعره قوة فى جانب المسلمين .

لم يكن الجهاد والفتوح شاغلا للعرب عن الشعر ، بل كان من أهم عوامل قوته ، وازدهاره ، كما سنرى فيما بعد .

ثم إننا يجب أن نفرق بين العمل المادى الذى قد يشغل عنه الإنسان بعمل آخر ، وبين الانفعال الذى لا يمنعه مكان أو زمان ، فحينما انفعل الشاعر تفجرت قريحته ، وسال لسانه بكلمات الشعر .(١)

وأخيرا . . فإن بعض الدارسين يرى أن الشعر الجاهلى قد بلغ قمة نضجه ، واعتصر كل ما فى أنماطه من إمكانات فنية قبل الإسلام، فاجتمع فى فترة قصيرة عدد من كبار الشعراء ، وانتهى عصر هؤلاء الكبار فى وقت إشراق النور الإسلامى ، فكان على الشعر أن يختار بين حياة جديدة بأدوات تعبيرية وقيم فنية جديدة ، وبين الإفلاس واجترار ما قال السابقون ، ولكن التجديد يحتاج زمانا حتى يتقبله المبدع والمتلقى . ومن هنا نلاحظ هذا الضعف فى شعر صدر الإسلام، حتى ينمو جيل جديد من الفحول يرد إليه قوته ويعوضه ما فقد بانتهاء عصر فحول الجاهليين .

والحق أن هذا القول بانتهاء عصر الفحول قبل الاسلام . وأن الشعر الجاهلى بلغ مرحلة الشيخوخة والوهن ، هذا القول نوع من التعميم غير العلمى ، أو غير الموضوعى ، فمن المفروض أن العباقرة

(١) نحو أدب إسلامى معاصر ص ١١٣

وكبار الشعراء أو الأدباء لا يظهرون فى عام واحد ولا يذهبون كذلك فى عام واحد ، قد يتقارب نبوغهم زمنيا ، وقد يتعاصرون ، ولكن ظهورهم واختفاءهم يتم متتابعا أو متلاحقا بحيث لا تخلو ساحة الأدب والشعر تماما من بعضهم ، ربما زاد العدد أو قل فى فترة عنه فى أخرى ، ولكنهم لا بد موجودون بشكل أو بآخر ، ذلك منطق الطبيعة وسنة الحياة حتى يسلم السابق رايته للاحق وتستمر المسيرة متواصلة حية ، وهو حكم الكون فى كافة المجالات الإنسانية وليس الأدب فحسب .

وفى مجالنا خاصة نجد أن الاسلام قد أشرق نوره على الجزيرة وفى الساحة الشعرية أصوات عالية شهيرة ، تتنافس وتتبارى ، مضيفة إلى التراث ، مهيئة الفرصة لأصوات فضة تتلمس طريقها وتقتدى بالكبار ، إننا نجد حسان بن ثابت وكعب بن زهير ولبيد بن ربيعة والعباس بن مرداس والحطيئة والهذليين ، وغيرهم وقبل أن يبرح هذا الجيل ساحة الشعر ودنيا الناس ، كان جيل آخر من النحول يتشرب منهم أصول الشعر ، ويضيف من عنده ، ما لم يلحقه السابقون بسبب التطور ، فلو لم يكن فى عصر الإسلام عباقرة وشعراء كبار ، لما ظهر هذا العدد الغفير من شعراء عصر بنى أمية ، وهم على هذا المستوى الرائع ، والذى فاق الجاهليين كثيرا كما وكيفا ، إن السنوات القليلة التى تفصل بين عصر صدر الاسلام ، وعصر بنى أمية ، لا تكفى لنبوغ هؤلاء الشعراء ، لو لم يصادفوا أساتذة يوجهونهم ، وكبارا

يرشدونهم ، ومثلا يقتدون بها ، وقد لا يكون التوجيه مباشرا ، أو التعليم فى قاعة الدرس ، ولكنها القدوة والمثال ، والتراث الذى يربى ويثقف .

ولا ريب أن الإنصاف يقتضينا عرض آراء من قالوا بقوة الشعر وازدهاره فى صدر الإسلام - وفيهم قدماء ومحدثين - وهم قد يستخدمون أدلة القائلين بالضعف على أنها أدلة قوة . إذا نظرنا إليها من زاوية أخرى ، فإعجاز القرآن مثلا ، حافز للشعراء وقدوة لهم فى الفصاحة والبلاغة ، تجدد أساليبهم ، وتمدهم بأنماط فنية لم تكن معروفة للجاهليين ، والرقة واللين اللذان يشار إليهما فى شعر حسان أو غيره من الإسلاميين ، هما ميزتان ودليلا تطور سوف تتضح قيمتهما حين يتقدم الزمن ، وتلتقى بالغزل العذرى ، أما المعارك بين الاسلام وأعدائه ، ثم حروب الردة ، وما تبعها من الفتوح ، فقد كانت خيرا وبركة على الادب عامة والشعر خاصة ، أو لم تظهر شاعرية قريش ، وتمد الشعر بموضوعات جديدة ، وتفجر طاقة الإبداع عند كثيرين لم يُعرفوا بها قبلا ؟

وتبقى القيم الإسلامية الجديدة والتى حزن من أجلها حبّبوا الشعر الجاهلى وتساءلوا فى أسف : فماذا بقى من أغراض الشعر ؟ (١) . إنها فى رأى المنصفين طوق النجاة - ليس للحياة العربية فقط - ولكن للعالم

---

(١) تاريخ الشعر العربى : ص ٥٥

أجمع ، وليس فى ميدان الدين والمجتمع فحسب ، ولكن فى مجال الشعر والفن عامة . فلنفصل ذلك :

هناك بعض الملاحظات التى توضع فى الاعتبار عند إصدار الحكم بالقوة أو بالضعف على الشعر فى فترة النبوة والخلفاء الراشدين ، وتلك الملاحظات هى :

١ — قصر المدة الزمنية ـ موضوع الحكم ـ فهى لا تتعدى أربعين سنة ، وهى مدة أقصر من أن تتيح الفرصة لنبوغ الشعراء الجدد ، أو تأصيل القيم الفنية المستحدثة ، أو حتى إنتاج الكم الشعرى الكافى للحكم ، فى حين أن الشعر الجاهلى موضوع المقارنة قد استغرق مائتين أو مائة وخمسين سنة ، أرسى تقاليده ، وقعد لفنونه ، وتوصل إلى أساليبه التعبيرية وأدواته ، وخاض التجارب العديدة حتى استكشف طريقه ، وكثرت نماذجه وتنوعت ، فسهلت للدارسين عملية التحليل والدرس والحكم ، بل بررتهم بكثرتها وتنوعها ، فكيف تصح المقارنة ؟ .

٢ — وهناك كذلك ملاحظة هامة : لقد عاش الشعراء الجاهليون حياة تكاد تكون ثابتة بلا تغيير ، وتشربوا قيما لا تتبدل عبر مئات السنين ، وتكيفوا معها وعرفوا طرائق التعبير عنها وتصويرها ، أما الشعراء المسلمون فبعد التحول الهائل فى القيم والعقيدة على يدى النبى ﷺ تلاحقت الأحداث ، من صدام مع الكفر والشرك ، إلى

فتح مبين ونصر مؤزر ، ثم موت الرسول الكريم وما أحدثه من هزة أوشكت أن تذهب بلب أعقل العقلاء ، وما تبعه من نقاش حول الخلافة .

ثم حروب الردة التي زلزلت عقائد ضعيفة، وهزت نفوسا خائرة ، وبعدها فتوح الإسلام، فوطىء العربي أراضي كان يستحيل عليه أن يطأها، ورأى حضارات واطلع على ثقافات لم يكن ليراها لولا الفتوح ، والأهم من ذلك أنه عاش تجارب جديدة ، وعانى هموما وشواغل لم يعرفها آباؤه وأجداده ، حركت في نفسه كوامن الإبداع وفجرت ملكاته، وحفزته لتصويرها في الشعر ، ولكنها تحتاج زمنا لتختمر .

٣ — وعلينا أن نراعي أيضاً — قبل الحكم — أن شعر هذه الفترة يضم شعر المسلمين وشعر المشركين ، وأن شعر الشرك قد أهمل وضاع أغلبه ، لما فيه من مساس بالدين والرسول والمسلمين ، فالحكم هنا يصدر على بعض الشعر وليس عليه كله ، وحتى هذا البعض الذي نحكم عليه ، مبعثر متناثر في عشرات الكتب والمخطوطات ، منها كتب الأدب الموسوعية ، وكتب السير والمغازي والتاريخ ، كذا كتب الطبقات والأنساب وكتب الصحابة ، ولذا : فلكي يتسنى لنا حكم صحيح يجب جمع وتصنيف كل هذا الكم من الشعر ، والدليل على ذلك التوزع للشعر في مطالع العهد الاسلامي ، هو أن النماذج التي ترد منه في كتب تاريخ الأدب تختلف وتتنوع حسب المصدر الذي أخذ عنه الدارس ، فهذا من السيرة ، وذاك من الطبري ، وغيرهم من الأغاني، وهكذا .

بقى أن نسمع لمن قالوا بالقوة ونتعرف على أدلتهم مفصلة :

١ — يقول ابن خلدون « . . . إن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة فى البلاغة وأذواقها من كلام الجاهليين فى منثورهم ومنظومهم فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبى ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان ذى الرمة والأحوص وبشار ، ثم كلام السلف من العرب فى الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية ، فى خطبهم وترسلهم ، ومحاوراتهم للملوك ، أرفع طبقة من البلاغة فى شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير ، وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد ، ومن كلام الجاهلية فى منثورهم ومحاوراتهم ، والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للعاقد البصير بالبلاغة . والسبب فى ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام وسمعوا الطبقة العالية من الكلام فى القرآن والحديث الذين عجز البشر عن الإتيان بمثليهما ، لسكونها ولجت فى قلوبهم ، ونشأت على أساليبها نفوسهم ، فتهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم فى البلاغة على ملكات من كان قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ، ولا نشأ عليها ، فكان كلامهم فى نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقا من أوائلك ، وأرصف مبنى ، وأعدل تثقيفا بما استفادوه من الكلام العالى الطبقة ، وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة »(١) .

---

(١) المقدمة : ص ٤٣ ، ٤٤

وإلى أثر القرآن على بلاغة العرب تشير الدكتورة «بنت الشاطىء» وهى تشرح مدى اعتزاز العرب بفصاحتهم ، وكيف كان القرآن تشريفا لهذه الفصاحة ، «فهو آية تقدير لبيان العرب ، لم تجىء لتعطيل البيان ، بل لتقر للعرب بشرف القيادة الوجدانية»(١) وفضل القرآن لا يقتصر على كونه قمة فى جمال التعبير ، ودقة الوصف وكمال البلاغة ، أو بقول موجز : إعجاز بيانى ، لكن فضله على الأدب شعرا ونثرا يكمن كذلك فى كونه وحد العرب لغويا حين صهر لهجاتهم فى بوتقة اللهجة القرشية بعد تطعيمها بمفردات وأساليب من اللهجات الأخرى ، وبذا فتحت مجال الذيوع والانتشار أمام الشعر العربى الاسلامى بعد الفتوح ، وكان القرآن الكريم حافظا ومستودعا للعربية أبد الدهر ، ورغم تقلبات الأحداث والأزمان ، فظلت من أقدم اللغات الحية .

٢ — وفى مقدمة المحدثين من مؤرخى الأدب الذين يدفعون تهمة ضعف الشعر الاسلامى ويذهبون إلى الرأى المعاكس ، دكتور «شوقى ضيف» ، ويرى أن من أهم الأسباب التى أدت لنهضة الشعر وازدهاره إبان البعثة وعهد الراشدين ، ما تتابع من أحداث هامة مؤثرة فى الجزيرة ثم فيما حولها وكون الشعر — إسلاميا — قد واكب هذه الأحداث ، فكل حدث وقع أسهم الشعراء بتسجيله وإثبات نتائجه ، يفخرون بما فيه نصر للدين وإعلاء لكلمة الله ، ويندبون بأعداء الإســـلام . ففى بداية الدعوة كان الشعر سلاحا فعالا ضد

---

(١) قيم جديدة فى أدبنا ص ٨٣

الكفار والمشركين، يرد كيدهم وينافح عن الرسول ﷺ وعن المسلمين. وفى حروب الردة ، خاض المسلم المعركة بلسانه كما خاضوا بسيفه ، فهاجم المرتدين وحمس المجاهدين .

فلما استقرت الدولة وانطلقت قوافل النور والإيمان إلى أفواج الأرض ، رافقهم الشعر يعزف على أوتاره القديمة ويستحدث أخرى جديدة ، وفى فتنة عثمان وفى حروب على ، فى كل تلك الأحداث لم يخفت صوت الشعر معبرا عما يعتنقه كل فريق من رأى « فالشعر لم يتوقف ولم يتخلف فى هذا العصر ، وهذا طبيعى لأن من عاشوا فيه كانوا يعيشون قبله فى الجاهلية ، وكانوا قد انحلت عقدة لسانهم وعبروا بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم ، فلما أتم الله عليهم نعمة الاسلام ظلوا يصنعونه وينظمونه »(١) .

وبعض الدارسين الذين ذهبوا إلى ضعف الشعر الاسلامى لم ينكروا مواكبة الشعر للأحداث ، يقول الدكتور الكفراوى « بل إن كبار شعراء تلك الفترة ، البعيدين عن ميدان المعركة ، لم يفلتوا من جاذبية تلك الثورة الجديدة المنبثقة من الحجاز ، وإن لم يتدخلوا فيها تدخلا مباشرا ، ومنهم الأعشى الكبير الذى مدح الرسول بدالية رائعة »(٢).

وقد اعتبر بعض النقاد أن المشاركة المستمرة من الشعراء

---

(١) العصر الاسلامى : ص ٤٣

(٢) تاريخ الشعر العربى ج ١ ص ٥٤

فى الأحداث المتلاحقة ، اعتبروها سببا لهبوط مستوى الشعر ، وهو قول فيه نظر ، فالأصل أن هذه المعارك كانت عامل إذكاء للشاعرية ، وإثارة للمواهب ، ودعوة للشعراء كى يؤدوا دورهم ويبلغوا رسالة الشعر فى نصرة الحق والخير ، وهى مجال للتبارى والاحتكاك بين القرائح . أما الاحتجاج بأن شعر الأحداث ربما غلب عليه طابع المناسبات الوقتية ، واتسم بأسلوب الخطابية والمباشرة ، فإن الرد على ذلك هو أن المناسبة كثيراً ما تصبح مجرد تسكتة أو نقطة انطلاق تهيج عاطفة الشاعر ، وتثير وجدانه ، وتفتح أمامه آفاقا جديدة ، ثم إن العرب قد اعتادوا على مثل تلك المبارزات الكلامية منذ جاهليتهم ، وهم شعراء بالفطرة والسليقة ، وكثيرا ما يرتجلون ، فليس الأمر جـــديدا عليهم ، وليس كل شعر المناسبات هابط المستوى أو ضعيف فنيا .

على أن زهو المسلم وهو يحس أنه بشعره ينصر الدين ، ويعلى الحق ، ويزهق الباطل ، ويجاهد فى سبيل الله ، كل ذلك يحفزه إلى التجويد ويزيد فى طاقة إبداعه .

(٣) ثم يستشهد المعارضون لحكم الضعف على الشعر الاسلامى بكثرة النصوص التى خلفتها تلك الفترة على قصرها ، لقد خص ابن هشام الشعر ببابب واسع فى سيرته ، يضم عشرات القصائد ومئات الأبيات وكذلك الطبرى ، ثم كتب الأدب كالأغانى ، وكتب الصحابة كالإصابة والاستيعاب ، جميعها ذاخرة بقصائد ومطولات وقطع

تدحض زعم من قال بضعف الشعر أو خموله ، وهو زعم غير صائب ، بل هو زعم يسرف فى تجاوز الحق ، وبعد رد الزعم يرى الدكتور « ضيف » أن قوة العقيدة فى قلوب الشعراء ورغبتهم فى أن يعم نورها جميع الخلق ، مما جعلهم يتسابقون إلى الاشتراك فى الجهاد ، وجعلهم أيضا يصدرون عن هذه العقيدة فى شعرهم « صدور الشذى عن الأزهار الأريجة »(١) .

ويذهب الدكتور السكفراوى إلى هذا الرأى فى إحدى المرات التى انتقل فيها من المؤيدين لتراجع الشعر ، إلى صفوف المعارضين لذلك ، وان استعمل فعل الظن « وأظننا الآن ، وبعد أن وقفنا على هذا العدد الضخم من الشعراء الذين وقفوا بجانب الدعوة الجديدة أو ضدها ، نستطيع أن نؤكد ما قلناه سابقا ، من أن تلك الدعوة قد أذكت الشعر واجتذبت كثيرا من الشعراء نحوها »(٢) .

(٤) وهناك دليل جديد على النشاط والازدهار الشعرى فى عهد الرسول الكريم وخلفائه ، وهو نبوغ عدد من الشعراء فى بيئات لم تعرف قبل الاسلام بالشعر ، ولم تهتم به ، وتلك هى الحواضر أو المدن الحجازية كمكة المكرمة والطائف . لقد عاش الجاهليون زمانا والشعر مركز فى البادية ، وليس للحاضرة إسهام فيه ، اللهم إلا بعض الأهاجى

---

(١) العصر الاسلامى : ص ٥

(٢) تاريخ الشعر العربى : ص ٥٣

بين الأوس والخزرج فى يثرب ، فلما بعث النبى ﷺ وتصدت له قريش بالإنكار والكفر، ثم هاجر بناء على أمر ربه، وتفجر الصراع بين مجتمع الايمان فى المدينة ومجتمع الكفر فى مكة ، وشارك الشعر فى كلا المعسكرين فظهر الشعراء فى مكة أولا ، كما كثر شعراء المدينة ، ثم انضمت إلى ذلك الركب الشعرى حواضر أخرى ، فالمدن والحواضر الحجازية كانت أوثق اتصالا وأسرع تأثرا بدعوة الإسلام ـ تأييدا أو معارضة ـ لقد وفر الاسلام بما أحدثه من زلزلة دينية واجتماعية واقتصادية ، أدت إلى الصراع ـ وهو أهم باعث للشعر ، وهو الثائرة كما عبر ابن سلام ، أو الصدام الفكرى الذى يولد الصراع المسلح .

كذلك اعتمدت مكة من قديم على مكانتها الدينية ، وافتخرت قريش بسدانة الكعبة ، فلما جاء الاسلام ، سلبها هذه المكانة فبحثت عن مجال آخر للمجد والشهرة كانت تحمله من قبل ، وهو مجال الشعر الذى رأت فيه أيضا سلاحا باترا .

٥ — ولا مراء فى أن الاسلام وما رافقه من أحداث ، سواء فى السنوات الأولى داخل الجزيرة العربية ، أو فيما بعد حين انطلقت الجيوش الفاتحة تكبر باسم الله عبر حدود الجزيرة ، لا مراء فى أن ذلك قد هيأ للشعر أغراضا جديدة ، ولفته إلى ميادين لم يطرقها من قبل ومن حسن حظ الشعر الجاهلى أن الإسلام — بما يمثله من قيم أتاح له فرصة ذهبية للتجدد ، حيث أتاح للشخصية الفردية استقلالها

وحررها من داخلها ، وارتقى بها عن الارتكاس فى المادة ، وجعلها تستشرف آفاقا روحية فسيحة وسامية »[1] ولأننا سوف نذكر تلك الأغراض حين نستعرض النماذج فلذلك نترك تفصيلها الآن .

٦ ـــ وآخر ما يستند إليه دعاة القوة والنماء فى الشعر الإسلامى هو المطالبة بنظرة نقدية جديدة إلى ذلك الشعر ، نظرة تتحرر من معايير الشعر الجاهلى ، وتنطلق من إسار جاذبيته ، نظرة تضع لنفسها مقاييس واعتبارات تنبع من هذا الشعر الذى نتحدث عنه ، ولا تقيسه باعتبارات شعر آخر سبقه ، أيا ماكانت قيمة ذلك الشعر وروعته.

---

(١) قراءة فى الشعر الاسلامى والأموى : ص ١٥

خامسا : نماذج من الشعر الإسلامى

على الرغم من أن الصراع الساخن والصراع الشعرى ، لم يتفجر إلا بعد هجرة الرسول المصطفى ومن آمن معه إلى المدينة، على الرغم من ذلك الا أن نفثات شعرية قليلة صدرت عن البعض ، ومنها ما قاله « عثمان بن مظعون » وقد دفعه أذى ابن عمه ـ أمية بن خلف ـ إلى الفرار بدينه والهجرة للحبشة ، ومن هناك أرسل معاتبا على ما بدر منه محذراً إياه من عاقبة البغى (١) :

أتيم بن عمرو للذى جاء بغضـــة
ومن دونه الشرمان والبرك أكتع
أأخرجتنى من بطن مكة آمنا
وأسكنتنى فى صرح بيضاء تقذع
وحاربت أقواما كراما أعزة
وأهلكت أقواما بهم كنت تفزع
ستعلم إن نابتك يوماً ملمـــة
وأسلمك الأوباش ، ما كنت تصنع

كذلك تحفظ الكتب المؤرخة لتلك الفترة قصيدة نادرة ، نظمها أحد مؤيدى قريش ـ أبو قيس بن الأسلت ـ وقد خاف مغبة

---

(١) تاريخ الشعر العربى ص ٢٩ . الهمزة للنداء ، تيم بن عمرو : هو جمح ـ جد عثمان وأمية ، الشرم: الخليج أو البحر .

والشرمان هما الخليجان بين اليمن والحبشة ، والبرك اسم لمواضع منها اليمن ، أكتع : أجمع ، تقذع : تذم وتكره . الأوباش : السفلة ، ملمة : كارثة .

النزاع بينهم وبين الرسول ، فنصحهم فى هذه القصيدة أن يسمعوا لصوت الحكمة ، ويعالجوا الخلاف بوسائل السلم والجدل العقلى(١) :

يا راكبـــاً اما عرضت فبلغن
مغلغلة عنى ، لؤىّ بن غالب
وقل لهم — والله يحكم حكمه —
ذروا الحرب تذهب عنكم فى المراحب
متى تبعثوهـــا ، تبعثوها ذميمة
هى الغول للأقصين ، أو للأقارب
تقطّع أرحاماً وتهلك أمـــة
وترى السديف من سنام وغارب
وتستبدلوا بالأتحمية بعدهـــا
شليلا وأصداء ثياب المحارب(٢)

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٩/٣٠ ، مغلغلة : رسالة ، المراحب : جمع مرحب وهو المكان الواسع ، السديف : لحم السنام ، الغارب : الكاهل .

(٢) الأتحمية : ثياب يمنية فاخرة ، الشليل : ما يلبس تحت الدرع ، الأصداء : الدروع الصدئة ، الغبر السوابغ : الدروع ، القتير : مسامير الدروع ، الجنادب : الجراد .

وبالمسك والكافور خبراً سوابقا
كأن قنيها ، عيون الجنادب

ولكن ، ما إن يهاجر الرسول الكريم والمسلمون إلى المدينة ، حتى يبدأ الصدام بين معسكر الإيمان والتوحيد فيها ، وبين معسكر الكفر والشرك في مكة ، وكان الصدام في ميدان القتال أولاً ، ثم نقلته قريش إلى ساحة الشعر ، حين تطاول بعض شعرائها بالقول على الرسول ﷺ والمسلمين ، وحينذاك استأذن حسان بن ثابت من الرسول في الرد عليهم ، وقيل بل ضاق المسلمون بهجاء المشركين فطلبوا من علي - كرم الله وجهه - أن يدفع عنهم سهامهم ، لكن عليا اعتذر - أو اعتذر عنه الرسول - وطلب المصطفى عليه السلام من الأنصار أن يشيعوا إلى أعدائهم فضلا جديدا فينصروا الإسلام باللسان كما نصروه بالسنان ، وبدأ « حسان بن ثابت » ثم انضم إليه عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك » .

ولئن كان الشعر الإسلامي قد بدأ في أول أمره ردا من شعراء الأنصار على المشركين بأغراض محددة ، وفي مناسبات خاصة ، إلا أنه فيما بعد ، ولا سيما حين فتحت مكة وعم الإسلام جزيرة العرب ، اتسع نطاقه وتعددت مجالاته ، وكانت الفتوح الإسلامية خارج الجزيرة بمثابة فتوح شعرية عظيمة الأثر واسعة الأرجاء .

ولنستعرض الآن نماذج من الشعر الإسلامى - دون التعرض لغير المسلمين - حتى يتسنى لنا الاطلاع على هـــذه الصفحات الوضيئة من تاريخ الشعر الإسلامى ، وتحرّى الحقيقة فى مستوى ذلك الشعر : من ضعف أو قوة ، وازدهار أو خمول . ورأينا - تنظيما لهذا الحكم من الشعر أن أعرضه بحسب الأغراض أو الموضوعات ، وبذا يأتى العرض شاملا من الناحية الزمنية لعصر الرسول ﷺ ، ثم خلفائه الراشدين ، على أن التتابع التاريخى سوف يتحقق ضمنا حينما نبدأ بالأغراض الاسلامية المبكرة ، مثل مدح النبى الكريم ، وهجاء المشركين ، ورثاء الشهداء فى معارك مكة والمدينة ، وتهديد المشركين واليهود بما أعد المسلمون لهم ، والفخر بالانتصارات الاسلامية .

وتأتى بعد ذلك أغراض جدت فى شعر الفتوح : كالحنين والاغتراب ووصف البلاد الجديدة وشعوبها ... وهكذا .

١ — مدح الرسول صلى الله عليه وسلم : يعد مدح النبى ﷺ والاشادة به فى مقدمة الأغراض المستحدثة والمجالات الجديدة للشعر العربى ، فعندما أشرق فجر الإيمان كان الرسول المصطفى هو المبلغ لهذه الرسالة السماوية ، وكان نبراسا وهاديا ، ومثلا وقدوة ، ومبشرا ونذيرا ورحمة مهداة ، وكان مدحه غير المدح الذى عرفه الشعر فى جاهليته للسادة والملوك ، استعطاء للمال أو طلبا للشهرة والمجد الأدبى ، فيحشد الصفات المحمودة فى مبالغة وتضخيم ، وقد يقول غير الحق ، وقد يمدح بما لم يوجد ، بل كان مدحه - صلوات الله عليه جهادا فى

سبيل الله وقربى إليه سبحانه ، كان دفاعا عن الدين وتثبيتا له ، كان اقتباسا من هذا النور واهتداء به ، ومن هنا فقـــد كانت القصائد المخصصة لهذا الغرض كثيرة عديدة ، وكانت القصائد التى نظمت أصلا لأغراض أخرى ، تحاول أن تشرف بأبيات فى مدحه تتناثر خلالها كالعبق الشذى ، ولذا كان الاختيار صعباً - فى هذا الكم - بين القصائد والأبيات ، إلا أننا حرصاً على الإيجاز ، نكتفى بأبيات من قصائد لمجرد الدلالة والتمثيل .

• يقول الأعشى الكبير من قصيده تبلغ أربعة وعشرين بيتا(١):

ألا أيهذا السائلى : أين يممت
فان لها فى أهل يثرب موعدا
فآليت لا أرثى لها من كلالة
ولا من حفى ، حتى تلاقى محمدا
نبى يرى ما لا ترون ، وذكره
أغار - لعمرى - فى البلاد وأنجدا
له صدقات ما تغب ، ونائل
وليس عطاء اليوم مانعه غدا
أجدك : لم تسمع وصاة محمد
نبى الإله ، حين أوصى وأشهد

---

(١) ديوان الأعشى الكبير ، تحقيق د . محمد حسين ص ١٣٥

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى

ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على أن لا تكون كمثله

وأنك لم ترصد ، لما كان أرصدا

• ويقول عبد الله بن رواحة(١) :

إني تفرست فيك الخير أعرفه

والله يعلم أما خانني البصر

أنت النبي، ومن يحرم شفاعته

يوم الحساب، لقد أزرى به القدر

فثبت الله ما آتاك من حسن

تثبيت موسى، ونصراً كالذي نصروا

• وعبد الله ابن الزبعرى الذي تطاول على النبي بالهجاء سنوات وهو مشرك، أصبح شديد الندم على ما قدم حين هداه الله فتاب واعتذر بقصائد عديدة ومدح الرسول مرات كثار منها :

---

(١) شعر عصر صدر الاسلام ص ٩

يا خير من حملت على أوصالها
عيرانة سرح اليدين رسوم
إنى لمعتذر إليك من الذى
أسديت ، إذ أنا فى الظلام أهيم
فاغفر، فدًى لك والدای كلاهما
زللى ، فإنك راحم مرحوم
وعليك من سمت المليك علامة
نور أغر ، وخاتم مختوم
أعطاك بعـــد محبة برهانه
شرفاً، وبرهان الإله عظيم(١)

ومن شعر العباس بن مرداس قوله مثنيا على النبى(٢) :

رأيتك يا خير البرية كلها
نثرت كتابا جاء بالحق معلما
ونورت بالبرهان أمراً مدمسا
وأطفأت بالبرهان ناراً مضرما

---

(١) المرجع السابق ص ٧٥ . عيرانة : ناقة أصيلة ، سرح : لينة رسوم : ثابتة الخطوة ، سمت : دلائل وظواهر .

(٢) المرجع نفسه ص ٧٧

فمن مبلغ عنى النبى محمدا

وكل امرىء يجزى بما قد تكلما

• يقول « حسان » ـ شاعر الرسول ـ فى إحدى روائعه التى تعد ردآ مفحما على القائلين بضعف الشعر الاسلامى(١) :

أغر ، عليه للنبوة خاتم

من الله مشهود ، يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبى إلى اسمه

إذا قال فى الخمس المؤذن : أشهد

وشق له من اسمه ليجله

فذو العرش محمود ، وهذا محمد

نبى أتانا بعـــد يأس وفترة

من الرسل ، والأوثان فى الأرض تعبد

فأمسى سراجا مستنيراً وهاديا

يلوح كما لاح الصقيل المهند

وأنذرنا ناراً وبشر جنة

وعلمنا الإسلام ، فالله نحمد

---

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين ص ٢٤٨

ويقول فى هزيته التى دعا له الرسول بالجنة مرتين من أجلها (١) وفيها يذكر قريشاً ويرد على أبى سفيان :

هجوت محمدا فأجبت عنه
وعند الله فى ذاك الجزاء
فإن أبى ووالده وعرضى
لعرض محمد منكم وقاء
أتهجوه ولست له بكفء
فشركما لخيركما الفداء
هجوت مباركا برا حنيفا
أمين الله شيمته الوفاء

٢ — تمجيد الدعوة الاسلامية ومدح المسلمين الأوائل :

لا ريب أن المسلمين الأوائل — مهاجرين وأنصارا — أصحاب العزيمة والارادة ، الذين واجهوا الشرك وهو فى أوج قوته ، وعنفوان جبروته، لا شك أنهم أصحاب الفضل الجديرون بالثناء والإشادة فقد حملوا — مهاجرين وأنصارا — عبء الجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الحق ونصرة الدين ، ولم يقصّر الشعراء المسلمون فى هذا المجال ،

(١) المرجع السابق ص ٢٥٣

فلا تكاد تخلو قصيدة إسلامية على عهد الرسول والراشدين من أبيات تمدح الأنصار أو المهاجرين أو كليهما معاً ، وتشيد بدورهم البطولى فى نصر الدعوة ومؤازرة النبى ، ثم تمجد الإسلام وما أفاء الله به على العرب من نعمة الهداية وفضل الرشاد ، ها هو كعب بن زهير فى موقف الاعتذار والتوبة ، يذكر المهاجرين فضلهم ويمدحهم[1] :

فى عصبة من قريش قال قائلهم
ببطن مكة ، لما أسلموا : زولوا

زالوا فما زال أنكاس ولا كشف
عند اللقاء ، ولا ميل معازيل

مشم العرانين أبطال ، لبوسهم
من نسج داود ، فى الهيجا سرابيل

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم
ضرب إذا عرد السود التنابيل

لا يفرحون إذا نالت رماحهم
قوما ، وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

لا يقع الطعن إلا فى نحورهم
وما إن لهم عن حياض الموت تهليل

---

(١) شرح بانت سعاد : ص ٨٦

ثم يستدرك فى قصيدة أخرى ما فاته من مدح الأنصار ، ولهم فضل النصر والمؤاخاة والإيثار على أنفسهم(١) :

من سرّه كرم الحياة فلم يزل
فى مقنب من صالح الأنصار
ورثوا المكارم كابراً عن كابر
إن الخيار هم بنو الأخيار
المكرهين السمهرى بأذرع
كسوالف الهندى ، غير قصار
الباذلين نفوسهم لنبيهم
يوم الهياج وسطوة الجبار
يتطهرون كأنه نسك لهم
بدماء من علقوا من الكفار
قوم إذا هوت النجوم فإنهم
للطارقين النازلين مقـــارى

ويجمع حسان فى مدحه بين الأنصار والمهاجرين ، فهم إخوة ،

---

(١) فى الأدب الإسلامى والأموى ص ٣٥

يقول فى رده على الزبرقان بن بدر(١) :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم
قد بيّنوا سنة للناس تتبع

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم
أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

إن كان فى الناس سباقون قبلهم
فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

أعفة ذكرت فى الوحى عفتهم
لا يبخلون ، ولا يرديهم الطمع

أعطوا نبى الهدى والبر طاعتهم
فما وفى نصرهم عنه ، وما نزعوا

إن قال : سيروا أجدوا السير جهدهم
أو قال : هوجوا علينا ساعة ، ربعوا

أكرم بقوم رسول الله قائدهم
إذا تفرقت الأهواء والشيع

فإنهم أفضـــل الأحياء كلهم
إن جدّ بالناس جد القول ، أو سمعوا

---

(٢) ديوان حسان ص ٢٣٨

٣ — هجاء المشركين رداً على هجائهم : تجاهل المسلمون هجاء المشركين أول الأمر ، فلما تمادوا ، وصار السكوت عنهم قد يفسر بالعجز عن إفحامهم ، تصدى لهم شعراء الأنصار ، يقول حسان ردا على أبي سفيان حين هجا النبي(١) :

أبلغ أبا سفيان أن محمـــدا

هو الغصن ذو الأفنان ، لا الواحد الوغد

وأبلغ أبا سفيان عني رسالة

فما لك من إصدار عزم ، ولا ورد

وأن سنام المجد من آل هاشم

بنو ابنة مخزوم ، ووالدك العبد

وما ولدت أفناء زهرة منكم

كريماً ، ولم يقرب عجائزك المجد

وكنت دعياً نيط في آل هاشم

كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

وأن امرأ كانت سمية أمه

وسمراء ، مغلوب إذا بلغ الجهد

وهو هجاء بالنسب ، أفاد فيه حسان من مثالب عرّفه إياها

(١) الديوان ص ١١٨

أبو بكر ، كما نصحه الرسول ، فكان ذلك موجعا لقريش .

ولحسان أيضا همزية رائعة فى الرد على أبى سفيان ، وهى التى دعا له الرسول بالجنة مرتين حين سمع أبياتها ، وفيها أنصف بيت قالته العرب (١) :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى
فأنت مجوف نخب هـــواء
هجوتَ محمدا فأجبتُ عنه
وعنـــد الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء
فشرُّكما لخيركما الفـداء
فإما تثقفن بنو لؤى
جذيمة ، إن قتلهم شفاء

وفى هجاء قريش يقول عبد الله بن الحارث بن عدى(٢) :

وتلك قريش تجحد الله حقه
كما جحدت عاد ومدين والحجر
فإن أنا لم أبرق فلا يسعنى
من الأرض بر ذو فضاء ولا بحر

---

(١) ديوان حسان صـ٧١ (٢) نظرات فى الشعر الإسلامى صـ٣٢

بأرض بها عبد الإله محمـــد

أبلّغ ما فى النفس إذ بلغ الفكر

(٤) حرب نفسية ضد المشركين : عرف فى الجاهلية وصدر الإسلام مصطلح «يخذل عنه أو عنهم» وقصد به ما يعرف حديثا بالحرب النفسية أو الباردة ، كان الشاعر يرسل فى أبياته نوعا من التهديد والإنذار ، حين يبالغ فى وصف القوة والاستعداد حتى يخيف الأعداء فيتراجعون عن الحرب، يقول معبد الخزاعى يعرّف أبا سفيان ابن حرب ، ويخذله عن الرسول :

كادت تهد من الاصوات راحلتى

إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل(١)

ترمى بأســـد كرام لا تنابلة

عند اللقاء ، ولا ميل معازيل

فظلت أعدو أظن الأرض مائلة

لمـــا سموا برئيس غير مخذول

---

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين : ص ٢٥٩ ، الجرد : الخيل ، الأبابيل : الجماعات ، ترمى : تسرع ، تنابلة : قصار ، ميل : بغير رماح ، معازيل : جبناء ، تغطمطت : اهتزت .

فقلت ويل ابن حرب من لقائكم
إذا تغطمطت البطحـــاء بالخيل(١)
من جيش أحمد لا وخش تنابلة
وليس يوصف ما أنذرت بالقيل

● ويقول شداد بن عارض الجشمي يخوف أهل الطائف:(٢)

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها
وكيف نصركم من ليس ينتصر
تلك التي حرقت بالنار فاشتعلت
ولم يقاتل لدى أحجارها هدر
إن الرسول متى ينزل بساحتكم
تظعن ، وليس بها من أهلها بشر

● وكعب بن مالك يذكر بدراً ويهدد المشركين:(٣)

رســـول الله يقدمنـــا بأمر
من امر الله أحـــكم بالقضاء
فمـــا ظفرت فوارســـكم ببدر
وما رجعوا إليـــكم بالسواء

---

(١) تغطمطت : اهتزت وخش: السفلة الرعاع ، القيل : القول ، أى : ليس وصفى خيالا .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٥٧ (٣) نفسه : ٢٥١

فلا تعجل أبا سفيان وارقب
جياد الخيـــل تطلع من كداء
بنصر الله ، روح القدس فيها
وميكال ، فيا طيب اللقاء

ومن أقوى ما قاله حسان فى تهديد قريش وتخويفها أبياته فى الحمزية قبيل فتح مكة :(١)

عدمنا خيلنـــا إن لم تروها
تثير النقع ، موعدها كـــداء
يبارين الأســـنة مصغيات
على أكنافها الأسل الظماء
تظل جيـــادنا متمطرات
تلطمهن بالخمر النساء
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا
وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم
يعين الله فيـــه من يشاء

(١) الديوان : ص ٧٣ ، مصغيات : منحرفات للطعن ، الأسل : الرماح ، متمطرات : تخرج عن الجماعة لسرعتها ، تلطمهن بالخمر : يضربن الخيل بخمرهن لردّها .

وقال الله قد يسرتُ جنـــدا

هم الأنصار عرضتها اللقاء

لنـــا فى كل يوم من معد

قتال أو سباب أو هجاء

فنحكم بالقوافى من هجانا

ونضرب حـــين تختلط الدماء

(٥) وصف المعارك والسلاح وبلاء المجاهدين : لم تكن المعارك التى خاضها المسلمون ـ خاصة فى الفتوحات على نفس المستوى المحدود البسيط الذى كانت عليه معارك الجاهلية ، وإنما تنوعت الأسلحة وكثرت العدد والآلات ، ومع ذلك ظل المقاتل المسلم على فروسيته وشجاعته وإقدامه ، فما أرهبته كثرة الجيوش ، ولا أفزعته الأسلحة التى لم يعهدها ، وظل الشعر على عهده فى متابعة الأحداث ، فوصف المعارك بدقة متناهية وذكر الأسلحة لدى الأعداء ، ولدى المسلمين ، وتحييزاتهم ، بدءا من معارك الإسلام الأولى إلى الفتوحات ، وحتى فتنة عثمان ، يقول كعب بن مالك رداً على هبيرة بن وهب[1] :

نجالد لا تبقى علينـــا قبيلة

من الناس إلا أن يهابوا ويفظعوا

(١) دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى : ص ١٩٢

وفينا رسول الله نتبع أمره

إذا قال فينا القول ، لانتطلع

نشاوره فيما نريد ، ونصرنا

إذا ما اشتهى أنا نطيع ونسمع

وقال رسول الله لما بدوا لنا :

ذروا عنكم هول المنيات واطمعوا

وكونوا كمن يشرى الحياة تقربا(١)

إلى ملك يحيا لديه ويرجع

فسرنا إليهم جمرة في رحالهم

ضحيا ، عليها البيض لاتتخشع

ملمومة فيها السنور والقنا

إذا ضربوا أقدامها لا تورع

فثنا إلى موج من البحر وسطه

أحابيش منهم حاسر ومقنع

---

(١) يشرى : يبيع ، ضحيا : تصغير ضحى ، البيض : بفتح الباء : السيوف ، وبكسرها : الخوذ ، تتخشع : تضعف ، ملمومة : كتيبة ، السنور : لباس كالدرع ، تورع : تكف . أحابيش : نسبة إلى جبل بحبشى ، وهم القرشيون ، نصبة : أشراف مختارون .

ثلاثة آلاف ونحن نصية
ثلاث مئين إن كثرنا وأربع(١)
نغاورهم ، تجرى المنية بيننا
نشارعهم حوض المنايا ونشرع
تهادى قسى النبع فينا وفيهم
وما هو إلا اليثربى المقطع
وخيل تراها بالفضاء كأنها
جراد صبا فى قرة يتربع
فلما تلاقينا ودارت بنا الرحى
وليس لأمر حمّه الله مدفع
ضربناهم حتى تركنا سراتهم
كأنهم بالقاع خشب مصرّع
وراحوا سراعاً موجفين كأنهم
جهام هراقت ماءه الريح مقلع
ورحنا وأخرانا بطاء كأننا
أسود على لحم ببيشة ظلع

(١) نغاورهم : نغير عليهم ، نشارعهم : نشاريهم ، النبع : شجر تصنع منه القسى . اليثربى : أرتار من يثرب ، صبا : ريح شرقية باردة . قرة : برد ، يتربع : يجىء ويذهب ، مصرع : مطروح على الأرض ، موجفين : مسرعين ، جهام : سحاب . هراقت : أفرغت . بيشة : موضع . ظلع : تميل الخطر .

ونحن أناس لا نرى القتل سبة
على كل من يحمى الزمار ويمنع
شددنا بحول الله والنصر شدة
عليكم ، وأطراف الأسنة شرّعُ
عمدنا إلى أهل اللواء ، ومن يطر
يذكر اللواء فهو فى الحد أسرع
فحانوا وقد أعطوا يدا وتخاذلوا(١)
أبى الله إلا أمره ، وهو أصنع

وفى أبياته التالية ، يضيف «كعب» إلى ما عرف من أسلحة مادية سلاحا معنويا جديدا أمد به الإسلامُ رجاله ، هو سلاح التقوى ، حين يبيع المجاهد نفسه إلى ربه كى ينصر دين الله ، يقول فى موقعة الخندق (٢) :

دربوا بضرب المعلمين فأصبحوا
مهجات أنفسهم لرب المشرق
فى عصبة نصر الإله نبيه
بهم ، وكان بعبده ذا مرفق

---

(١) حانوا : مالوا وهى من الحين ، أعطوا يدا : استسلموا .

(٢) شعر عصر صدر الإسلام : ص ٦٠ ، دربوا : من التدريب . المعلمين : المتميزين . سابغة : دروع كاملة . النهى الغدير . المترقرق : الرائق السيال .

فى كل سابغة تخط فضولها
كالنهى هبت ريحه المترقرق
تصل السيوف إذا قصرن بخطونا
قدما ونلحقها إذا لم تلحق
فترى الجاجم ضاحيا هاماتها(١)
بلته الأكف كأنها لم تخلق
وتُعيد الأعداء كل مقلص
ورد ، ومحجول القوائم أبلق
تردى بفرسان كأن كماتهم
عند الهياج أسود طل ملثق
أمر الإله بربطها لعدوه
فى الحرب ، إن الله خير موفق
لتكون غيظا للعدو وحُيّطا
للدار ، إن دلفت خيول النزق

---

(١) ضاحيا : واضحا ظاهرا . بله : وكذلك ، مقلص : جواد طويل القوائم . ورد : أشقر . محجول : فى قوائمه بياض . تردى : تسرع . ملثق : ذلق وطين من الطل .
حيطا : حماية وإحاطة .

ويعيننا الله العزيز بقوة
منه ، وصدق الصبر ساعة نلتقى
ونطيع أمر نبينا ونجيبه
وإذا دعا لكريهة ، لم نسبق

وفى يوم اليمامة — إحدى معارك الردة — على عهد أبى بكر الصديق ، يصف « ضرار بن الأزور » لقاء المسلمين بأتباع سجاح بنت الحارث ومسيلمة الكذاب :(١)

ولو سألت عنا جنوب لأخبرت
عشية سالت عقربا وملهم
وسال بفرع الواد حتى ترنرقت
حجارته فيها من القوم الدم
عشية لا تغنى الرماح مكانها
ولا النبل ، إلا المشرفى المصمم
فإن تبتغى الكفار غير مليمة
جنوب ، فإنى تابع الدين مسلم
أجاهد إذ كان الجهاد غنيمة
ولله بالمرء المجاهـــد أعلم

---

(١) نظرات فى الشعر الاسلامى والأموى : ص ٤٤.

ولم يفت الشاعر المسلم أن يشير إلى الفيلة التى يقدمها الفرس أمام الجيش فتفزع الخيول ، فى القادسية حضر عدد كبير من الشعراء ومنهم ربيعة بن مقروم الضبي : (١) الذى ذكر الجاحظ أبياته عن الفيل فى كتاب الحيوان ، يقول :

ودعوا نزال فكنت أول نازل
وعلام أركبه إذا لم أنزل
ودخلت أبنية الملوك عليهم
ولشر قول المرء ما لم يفعل
وشهدت معركة الفيول وحولها
أبناء فارس بيضها كالأعبل(٢)
متسربلى حلق الحديد كأنهم
جرب مقارفة عنية مهمل

وفى نفس المعركة — القادسية — لا يكتفى الشاعر قيس بن المكشوح المرادى ، الذى قتل « رستم » قائد الفرس، لا يكتفى بوصف المعركة وإنما يبدأ من أول الرحلة(٣) :

(١) المرجع السابق : ص٥٨ - كذلك : العصر الاسلامى : ص ٦٤
(٢) البيض : الخوذ ، الأعبل : حمر أبيض ، جرب : إبل مصابة بالجرب ، مقارفة : مريضة بالقرف ، وهو داء يقتل الإبل ، عنية : طلاء للجرب ، مهمل : الذى يهمل الإبل .
(٣) العصر الإسلامى : ص ٦٣ . تردى : تسرع .

جلبت الخيل من صنعاء تردى
بكل مدجج كالليث ســـامى
إلى وادى القرى فديار كلب
إلى اليرموك فالبلد الشآمى
وجئنا القادسية بعد شهر
مسومة ، دوابرها دوامى[1]
فناهضنا هنالك جمع كسرى
وأبناء المرازبة الكرام
فلما أن رأيت الخيل جالت
قصدت لموقف الملك الهمام
فأضرب رأسه فهوى صريعاً
بسيف لا أفل ولا كهام

٦ — الإقدام على الجهاد والفرح بالشهادة : لم يكن حرص المسلمين على التسابق للجهاد والاشتراك فى كل المعارك دافعه تحقيق النصر على الأعداء فحسب ، وإنما لاحت أمامهم أهداف عدة ، جميعها

(١) مسومة : بها علامة ، دوابر : عراقيب ، دوامى : ملطخة بالدم ، المرازبة : رؤساء الفرس ، أفل ، مثلم ، كهام : كليل .

تتصف بالسمو والنبالة ، فنشر دين الله ، والإطاحة بعروش الكفر والشرك ، هي الغاية القصوى ، ولذلك يسعى المجـــاهد إلى النصر ، لا يمنعه من ذلك حرص على الحياة ، لأن من غاياته أيضا الفوز بالشهادة ، وهل أعلى مقاما من جنة الخلد يقيم بها الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، من هنا كان تزاحمهم على الذهاب للمعركة ، وألم تر من تمنعه حوائل عن الاشتراك ، ومن هنا كان فرحهم بالشهادة وطلبهم إياها ، وكان رضاهم بكل ما يلاقون في الميدان من أعدائهم ، أرسل النبي ﷺ وفدا لبعض القبائل ليفقهوهم في الدين ، لكنهم غدروا بالوفد ، وأعدوا لصاب رئيسه وهو : « خبيب بن عدي » ، فقال :(١)

إلى الله أشكو غربتي ثم كربتي
وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي
فذا العرش صبرني على ما يراد بي
فقد بضعوا لحمي وقد يأس مطمعي
وقد خيروني الكفر ، والموت دونه
وقد هملت عيناي من غير مجزع
فوالله ما أرجو إذا مت مسلما
على أي جنب كان في الله مصرعي

---

(١) الأدب في عصر النبوة والراشدين ص ٣٤٠

ولست بمبد للعدو تخشعا
ولا جزعا ، إنى إلى الله مرجعى

واستمع إلى « بشر بن ربيعة الخثعمى » يصور تسابق المجاهدين، وقد تمنوا لو أن لهم أجنحة فيطيرون إلى الميدان (١):

تذكر - هداك الله - وقع سيوفنا
ببابه قديس ، والمتكثر عسير
عشية ودّ القوم لو أن بعضهم
يعار جناحى طائر فيطير
إذا ما فرغنا من قراع كتيبة
دلفنا لأخرى كالجبال تسير

ويشبه « البريق بن عياض الهذلى » نفسه بالجدى الكبير المربوط فى موضعه لا حيلة له ، وكان كبر سنه قد منعه من مرافقة أبنائه إلى الميدان (٢) :

---

(١) العصر الإسلامى ص ٦٣
(٢) السابق ص ٥٦ . أملاح : اسم مكان ، اليمر: الجدى الكبير ، خلافهم : بعدهم . العتر : شجر له أوراق صغيرة .

أسائل عنهم كلما جاء راكب
مقيما بأملاح كما ربط اليمر
فما كنت أخشى أن أقيم خلافهم
بستة أبيـــات كما نبح المتر

ومن أعجب ما حدث فى موقعة القادسية قصة «أبى محجن الثقفى» ، كان شرّابا للخمر حتى أقيم عليه الحد مرات، ثم حبسه «سعد بن أبى وقاص» بأمر الخليفه «عمر بن الخطاب» وشبت معركة القادسية فاشتعل حماسا وهو الفارس المِقْدام ، ورجا «سعدا» أن يطلقه ليسهم فى شرف الجهاد ، لكنه أبى ، فاتجه لزوجة «سعد» وتمنى أن تطلقه يوما وتعيره فرسا تسمى البلقاء ولها عهد أن يرجع فى الفجر فيعود لقيده ، فأبت ، واستعطفها بأبيات حزينة تعبر عن ندمه ورغبته فى التوبة :(١)

كفى حزنا أن ترتدى الخيل بالقنا
وأترك مشدودا علىّ وثاقيا
حبيسا عن الحرب العوان وقد بدت
وأعمال غيرى يوم ذاك العواليا
ولله عهدٌ ، لا أخيس بعهده
لئن فرجت، أن لا أزور الحوانيا

---

(١) نظرات فى الشعر الاسلامى والاموى : ص ٥٦

فرقت له زوجة « سعد » وأطلقته ، فحمل على الأعداء ببسالة أدهشت المحاربين حتى ظنوه ملكا ، وقال « سعد » « الطعن طعن أبي محجن والعدو عدو البلقاء ، ولولا محبس أبي محجن لقلت : هذا أبو محجن وهذه البلقاء » . وانتهى القتال في منتصف الليل فعاد لقيده وهو يقول :(١)

لقد علمت ثقيف غير فخر
بأنا نحن أكرمهم سيوفا
وأنّا رفدهم في كل يوم
فإن جحدوا فسل بهم عريفا
وليلة قارس لم يشعروا بي
ولم أكره لمخرجي الزحوفا
فإن أحبس فقد عرفوا بلائي
وإن أطلق أجرعهم حتوفا

و « عبد الله بن رواحة » ، أحد فرسان الشعر الثلاثة في المدينة يتجهز لغزوة مؤتة ، ويدعو له مودعوه بالعودة سالما فيرد :

---

(١) نظرات في الشعر الإسلامي والأموي : ص ٥٦

لكنني أسأل الرحمن مغفرة
وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا(١)
أو طعنة بيدي حران مجزرة
بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مرّوا على جدثي
يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

ويستغرقه أمل الشهادة ، فيحسدُ فرسه بالراحة من الأسفار ، فقد عزم على الرحلة الأخيرة إلى جنة الرضوان :

إذا أدّيتني وحملت رحلي
مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك أنعم وخلاك ذم
ولا أرجع إلى أهلي ورائي
وجاء المسلمون وغادروني
بأرض الشام مشتوى الثواء

وفي المعركة استشهد حامل اللواء — « زيد بن حارثة » —

---

(١) شعر عصر صدر الإسلام : ص ٦٩ . ذات فرغ : واسعة عميقة . الزبد : الرغوة ، وهو يقصد دمه .

لحمله « جعفر بن أبي طالب » ، واستشهد لحمله « عبد الله بن رواحة » وانطلق يردد وهو يرى بعينيّ قلبه منازل الشهداء فى الجنة :

أقسمت يا نفس لتنزلنه
لتنزلنه أو لتكرهنه
قد طال ما قد كنت مطمئنه
جعفر ما أطيب ريح الجنة

ويستجيب الله لرغبة القلب المؤمن التقى ، ويفوز بالشهادة ، لقد كان عدد الروم ضعف عدد المسلمين فى ذلك اليوم خمسين مرة .

٧ ــ الفخر بتأييد الدين والانتصار لدعوة الإسلام : رغم أن الفخر غرض شعرى قديم ، لم يستحدثه الشعراء المسلمون ، إلا أن الإسلام قد أضفى عليه من السمات ما أكسبه جدة ، تجعله يخالف الفخر الجاهلى كل المخالفة ، لقد صار مناط الزهو إعلاء كلمة الله ، وموضع الفخر هو الذود عن الإسلام ، وسر التعالى والاعتداد يكمن فى طاعة الرسول والاقتداء به ومناصرته ، ثم يأتى الفخر بالانتصار فى القتال على أعداء الله ، ولم تخل بعض مواقف الفخر من ذكر الآباء والأجداد ، ولكنه يختلف عن ذكر الجاهلية ، إنه لا يفخر بهم من حيث الأصل والمحتد والحسب والنسب ، وإنما بسبب أعمال بطولية كمناصرة الله ورسوله وحفظ الدين وحسن البلاء فى الحرب . وأول ما كان من فخر

إسلامي كان دور الأنصـــار بما قدموا من حماية للدين ، وإيواء للمهاجرين ، وتأييد ونصر للنبي الكريم ، يقول حسان[1] :

منعنا بها خـــير البرية كلها
إماما ورقرقنا الكتاب المنزلا
نصرنا وآوينا وقوّم ضربنا
ـ له ـ بالسيوف ، ميل من كان أميلا
فإن يأتنا أو يلقنا عن جناية
يجد عندنا مثوًى كريما ومنزلا

وما أكثر تفاخر حسان ـــ وحق له الفخر ـــ أليس من الأنصار، أليس شاعر الرسول ؟ يقول تيها[2] :

قومي الذين هم آووا نبيهم
وصدّقوه ، وأهل الأرض كفار
إلا خصائص أقوام هُمُ سلف
للصالحين مع الأنصار أنصار
مستبشرين بقسم الله ، قولهم
لما أتاهم كريم الأصل مختار

---

(١) ديوان حسان ص ٢٧٦ (٢) الديوان ص ٣٨٨

أهلا وسهلا ، ففى أمن وفى سعة
نعم النبى ونعم القسم والجار
فأنزلوه بدار لا يخاف بها
من كان جارهم ، دارا هى الدار
وقاسموه بها الأموال إذ قدموا
مهاجرين ، وقسم الجاحد النار

ثم يأتى الفخر بالشجاعة والانتصار ؛ فى «نهاوند» يتباهى «عروة بن زيد الخيل الطائى» ويتمنى لو رأته زوجه باسلا شجاعا فهيّاب رغم قوة العدو وبأسه (١):

ألا طرقت رحلى ، وقد نام صحبتى
بإيوان شهرين المزخرف ، خلتى
ولو شهدت يومى (جلولاء) حربنا
ويوم نهاوند الهيول استهلت
إذن لرأت ضرب امرىء غير خامل
يجد بطعن أروع غير مصلت

---

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين ص ٣١١

To: www.al-mostafa.com

ولما دعوا : يا عروة بن مرهبل
ضربت جموع الفرس حتى تولت
وكم من عدو أشوس متمرد
عليه بخيلى — فى الهياج — أظلت
وكم كربة فرجتها وكريهة
شددت لها أزرى إلى أن تولت

وكم فى سجل البطولة الإسلامية من مجال للفخر والازدهاء ، فى « طاووس » — بأطراف فارس — يتعالى البطل بإخوانه الأبطال ، ويصغى الشعر للبسالة يقول « خليد بن منذر »(١) :

بطاووس ناهبنا الملوك وخيلنا
عشية شبرك علون الرماسيا
أطاحت جموع الفرس من رأس حالق
تراه كموار السحاب مناغيا
فلا يبعدن اللهُ قوما تتابعوا
فقد خضبوا يوم اللقاء العواليا

وفى (واج روذ) بهمذان ، ينكل المسلمون بقائد الفرس (موتا) ،

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٠٧

ويمتزج الفخر بالتغني مع الفخر بالجماعة في شعر « نعيم بن مقرن »(١) :

ولما أتانا أن موتا ورهطه
بنى باسل ، جرّوا جنود الأعاجم
نهضنا إليهم بالحديد كأنما
جبال تراءت من فروع الغلاصم
صدمناهم في « واج روذ » بجمعنا
فداة رميناهم بإحدى العظائم
فما صبروا في حومة الموت ساعة
لحدّ الرماح والسيوف الصوارم
أصبنا بها موتا ومن لف جمعه
وفيها نهاب قسمة غير عائم
بعفناهم حتى أووا في شعابهم
نقتلهم قتل الكلاب الجراحم

ولا غير من الفخر بالقبيلة ، والاعتزاز بالأصل ، وذكر الماضي التليد ، ما دام الحاضر مشرّفا ، وما دام مجال الفخر محمودا ، ومناط الزهو جهادا في سبيل الله(٢) يقول نافع بن الأسود بن قطبة التميمي ، يفخر ببلائه في القادسية وبتميم :

(١) المرجع السابق : ص ٣٠٨
(٢) نفس المرجع : ص ٣٠٥/٣٩٤

وقال القضاة من معد وغيرها

تميمك أكفاء الملوك الأعاظم

هم أهل عز ثابت وأرومة

وهم من معدّ فى الذرا والغلاصم

وهم يضمنون المال للجار ما ثوى

وهم يطعمون الضيف ضربة لازم

وحين أتى الإسلام كانوا أئمة

وبادوا معدا كلها بالجرائم

إلى هجرة كانت سناء ورفعة

لباقية فيهم وخير مراغم

فجاءت بهم ضمن الكتائب نصرة

فكانوا حماة الناس عند العظائم

فصفّوا لأهل الشرك ثم تكبكبوا

وطاروا عليهم بالسيوف الصوارم

(٨) الرثاء : والرثاء أيضا غرض قديم اكتسب فى ظلال الإسلام ملامح جديدة ، وأمده الشعراء المسلمون بروح متألقة ، حوّلته إلى لون جديد عزيز ، يُعد مفخرة للشعر العربى فى تاريخه الحافل العريق .

ولم تقتصر الإضافات الإسلامية فى شعر الرثاء على اللغة والأسلوب أو على المعانى والأفكار ، لقد شملت هـــذين المجالين ثم تجاوزتهما إلى المنطلق — أو نقطة البدء — الذى يصدر عنه الشاعر فى رثائه ، لم يعد الجزع المهلك ، والأسى المستبد ، بل صار الصبر الجميل والاحتساب عند الله ، تحول الموت من فناء وانتقال إلى مرحلة انتقال ، أصبح وسيلة لجوار الله كريم ، والوصول إلى جنة الخلد ونعيم المغفرة .

وبعد أن كان القتل فى الحرب عارا لابد من الثأر فيه للقتيل ، أصبح استشهادا فى سبيل الله يتسابق للفوز به جميع المجاهدين ، وكان لابد لشعر الرثاء أن يتغير فى العهد الإسلامى ليستوعب تلك المعانى السامية الرفيعة ، ومن هذا يمكن أن نعد الرثاء غرضا جديدا .

رثاء الرسول ﷺ : فى تصورى أن وفاة الرسول الكريم كانت حدثا جللا ، هز قلوب المسلمين وعقولهم ، كانت اختبارا عسيرا وقفوا أمامه حيارى جزعين ، ولعل البعض ظل واقفا تحت تأثير الهول أياما وشهورا ، ولذلك يصبح التعبير عن وقع الحدث فى النفس صعبا ، وتصوير تأثيره على الوجدان شاقا ، وهكذا يمكن لنا تفسير قلة قصائد الرثاء التى صيغت بعد وفاته عليه السلام ، أو ضعف مستواها الفنى ، ومع ذلك فهناك عدد منها على مستوى جيد . يقول حسان(١) :

(١) الديوان : ص ٢٠٧

آليت حلفة بر غير ذى دخل
فى ألية بر غير إفناد
بالله ما حملت أنثى ولا وضعت
مثل النبى رسول الرحمة الهادى
ولا مشى فوق ظهر الأرض من أحد
أوفى بذمة جار أو بميعاد
من الذى كان نورا يستضاء به
مبارك الأمر ذا حزم وإرشـــاد
مصـــدقا للنبيين الألى سلفوا
وأبذل الناس للمعروف للهادى
خـــير البرية إنى كنت فى نهر
جار ، فأصبحت مثل المفرد الصادى

وفى « داليته » الثانية يبدو حسان جازعا هالعا ، قد حار لبه وأوشك أن يغيب رشده ، ولعلها من أوائل ما قاله فى رثائه ﷺ (١) :

جنبى يقيك الترب ، لهفى ، ليتنى
غيبت قبلك فى بقيع الغرقـــد

---

(١) الديوان ص ٢٠٨ ، غرقد : شجر صحراوى ذكى الرائحة

أأقيم بعدك فى المدينة بينهم
يا نفس نفسى ليتنى لم أولد
بأبى وأمى من شهدت وفاته
فى يوم الاثنين ، النبى المهتدى
فظللت بعد وفاته متلددا
يا ليتنى صبحت سم الأسود
أو حل أمر الله فينا عاجـــلا
فى روحة من يومنا أو فى غد
فنقوم ساعتها فنلقى طيباً
محضا ضرائبه كريم المحتد
نور أضاء على البرية كلها
من مُهد للنور المبارك يهتد
صلى الإله ومن يحف بعرشه
والطيبون على المبارك أحمد

وله أبيات أخرى « رائية » وقصيدة « لامية » ، وأظننا لو تتبعنا كل شعره واجدين الكثير ، ولكن تكفينا بعض الأمثلة .

رثاء الشهداء : حين استشهد حمزة بن عبد المطلب ـ عم الرسول

ﷺ — وكان ذلك بمؤامرة غادرة من هند بنت عتبة ، ورثاه عدد كبير من شعراء المسلمين ، فقد كان رضوان الله عليه حصناً للدين ، وسنداً للنبي ، وقوة للمسلمين ، كان كما سماه رسول الله : أسد الله ، ولذا عظمت الكارثة بفقده واشتد الحزن ، إلا أن الروح المؤمنة ظلت هي الطابع المسيطر على ذلك الرثاء ، تقول أخته — صفية بنت عبد المطلب(١) :

دعاه إله الحق ذو العرش دعوة
إلى جنة يحيا بها وسرور
فذلك ما كنا نرجي ونرتجي
لحمزة يوم الحشر حين مصير
فوالله لا أنساك ما هبت الصبا
بكاء وحزنا محضري ومسيري
على أسد الله الذي كان مدرها
يزود عن الإسلام كل كفور

• ويقول « كعب بن مالك » في رثاء « حمزة »(٢) :

أصيب المسلمون به جميعا
هناك وقد أصيب به الرسول

---

(١) الأدب في عصر النبوة والراشدين ص ٢٦٢
(٢) المرجع نفسه ص ٢٦٢ ، ٢٦٤

عليك سلام ربك فى جنان
مخالطها نعيم لا يزول

• وفى غزوة مؤته استشهد عدد كبير من المجاهدين ، منهم « عبد الله ابن رواحة وجعفر بن أبى طالب وزيد بن حارثة » فرثاهم كعب ابن مالك (١) :

نام العيون ودمع عينك يهمل
سحا كما وكف الطباب المخضل
فى ليلة وردت على همومها
طورا أحنّ وتارة أتململ
وكأنما بين الجرائح والحشا
مما تأوبنى شهاب مدخل
وجدا على النفر الذين تتابعوا
يوما بمؤتة أسندوا لم ينقلوا
صلى الإله عليهم من فتية
وسقى عظامهم الغمام المسبل

---

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين ص ٤٦٢

ولا ريب أن عظم المصاب فى الشهداء ، حفز على رثاء الكثيرين لهم ، لقد نظم حسان أكثر من قصيدة يرثيهم بها ، منها (١) :

تاوبنى ليل بيثرب أعسر
وهمّ اذا ما نوم القوم مسهر
لذكرى حبيب هيّجت لى عبرة
سفوحا ، وأسباب البكاء التذكر
بلاء وفقدان الحبيب بلية
وكم من كريم يبتلى ثم يصبر
رأيت خيار المؤمنين تواردوا
شعوبَ ، وقد خلفت فيمن يؤخر

غداة غدوا بالمؤمنين يقودهم
إلى الموت ميمون النقيبة أزهر
أغر كنصل السيف من آل هاشم
أبيّ إذا سيم الظلامة يجسر
فصار مع المستشهدين ثوابه
جنان وملتف الحدائق أخضر

---

(١) الديوان صـ ٢٢٣ ، شعوب : بفتح الشين : المنية .

وفى الغزوات المتلاحقة ، عبر الفتوح الإسلامية ، يسقط شهداء مجهولون ، فيرثيهم الشعر ، فى معركة جوزجان ببلاد فارس يذكر « ابن الغريرة النهشلى » شهداء المسلمين(١) :

سقى مزن السحاب إذا استهلت
مصارع فتيـــة بالجوزجان
وما بى أن أكون جزعت إلا
حنـــين القلب للبرق اليمانى
ورب أخ أصاب الموت قبلى
بكيته ، ولو نعيت له بكانى
دعانى دعوة والخيل ترمى
فما أدرى : أياسمى أم كنانى

وأحيانا يرثى الشاعر نفسه ، أو بعض نفسه ، إنه قد يصاب فى إحدى المعارك ، فيفقد عضوا من جسمه ، وبكل إيمان وتقوى يستقبل الأمر فى رضى ، ويحتسب ما ضاع منه عند الله ، يراه تضحية هينة فى سبيل نصرة الدين ، وإعلاء كلمة التوحيد ، « عبد الله بن سبرة الحبشى » وقد قطعت يده فى معركة بارز فيها قائد الروم(٢) :

---

(١) نظرات فى الشعر الإسلامى والأموى : ص ٦٢
(٢) الأدب فى عصر النبوة والراشدين ص٣١٨ وأم جار : كفه

ويل « أم جار » غداة الروع فارقنى
أهون على به إذ بان فانقطعا
يمنى يدىّ غدت منى مفارقة
لم أستطع يوم «فلطاس» لها تبعا
وما ضننت عليها أن أصاحبها
وقد حرصت على أن نستريح معا
وقائل غاب عن شأنى وقائلة
هلا اجتنبت عدو الله إذ صرعا
وكيف أتركه يسعى بمنصله
نحوى وأعجز عنه بعد ما صنعا
ما كان ذلك يوم الروع من خلقى
ولو تقارب منى الموت فاكتنعا

يمشى إلى مستميت مثله بطل
حتى إذا أمكنا سيفاهما قطعا
لئن يكن « أرطبون » الروم قطعها
فإن فيها بسعد الله منتفعا

بهاتين وجرموزا أقيم به (١)
صدر القناة إذا ما آنسوا فزعا

٩ ــ الحنين والاغتراب : وقد نشأ فى رحاب الفتوح غرض شعرى جديد ، هو الحنين إلى الأهل والوطن ، والإحساس بالغربة فى البلاد التى سافروا إليها لفتحها ، أو التى أقاموا فيها بعد الفتح ليرسوا قواعد الدين ، ويحموا ذماره ، وقد يكون الحنين من الأهل المقيمين فى الوطن إلى ذويهم وأبنائهم الذين سافروا للجهاد والغزو ، وكلاهما وجهان للحنين الذى كابده العرب لأول مرة ، فالعربى لم يتعود الأسفار البعيدة ، وحتى التجار الذين كانوا يسافرون لجلب البضائع ، كانت رحلاتهم معروفة مألوفة إلى مشارف الشام واليمن ، أما فى الفتوح فقد شرقوا وغربوا وأيمنوا وأيسروا ، ورحلوا إلى أقاصى الأرض فى كل اتجاه ، وربما قيل إن بكاء الأطلال كان لونا من الحنين إلى الديار بسبب الرحلة بحثا عن الماء والكلأ ، لكن الأمر جد مختلف ، فتنقل العربى داخل الجزيرة لا يشبه تنقله إلى بيئات شديدة الاختلاف والتباين ، وتفصلها عن وطنه آلاف الفراسخ ، وعدد من البحار والأنهار .

كذا فإن بكاء الأطلال لم يلبث أن تحول إلى تقليد متكلف ، يخلو

(١) أم جار : الكفء ، فلطاس : مكان المواقعة ، اكتنعا : دنا وأحاط ، أرطبون : قائد الروم ، جرموز : طرف .

من الصدق ، ويفتقد التجربة المعاناة ، بينما يصدر حنين الشاعر الإسلامى عن غربة حقيقية ، وإحساس بالبعد المكانى والزمانى . استمع إلى هذا الشاعر يستبد به الحنين فيتخيل الخيام والمرابع ، ويدقق النظر ، وهو يعلم - يقينا - أن الرؤية مستحيلة ، لبعد المسافة وكثرة الحواجز ، ولكنه ينظر عساه يهتدى[1] :

أكرر طرفى نحو نجد ولا أرى
برغمى وإن لم يدرك الطرف أنظر
حنينا إلى أرض كأن ترابها
إذا أمطرت عود ومسك وعنبر
بلاد كأن الأقحوان بروضه
ونور الأقاحى وشىُ برد محبر
أحن إلى أرض الحجاز وحاجتى
خيام بنجد ، دونها الطرف يقصر
وما نظرى من نحو نجد بنافع
أجل لا ، ولكنى إلى ذاك أنظر
أفى كل يوم نظرة ثم عبرة
لعينيك مجرى مائها يتحدر

---

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين : ص ٣١٣ ، لم يذكر اسم الشاعر

متى يستريح القلب : إما مجاوز
لحرب ، وإما نازح يتذكر

وتهيج ذكرى الحبيبة دموع شاعر آخر ، وقد يئن من اللقاء ، فيستروح النسمات من ناحية الديار ، ويشكو غربة الروح بين قوم لا يفهمون عنه ولا هو يفهمهم(١) :

أتبكى على نجد وريتا وان ترى
بعينيك ريا ما حييت ولا نجدا
ولا مشرفا ما عشت أقفار وجرة
ولا واطئا من ترجن ثرى جعدا
ولا واجدا ريح الخزامى تسوقها
رياح الصبا تعلو دكاديك أو وهدا
تبدلت من ريا وحمارات بيتها
قرى نبطيات يسمينني مردا
ألا أيها البرق الذى بات يرتقى
ويجلو دجى الظلماء ، ذكرتنى نجدا

---

(١) المرجع السابق والصفحة .

وفى هذا المجال أيضا يبرز حنين آخر هو حنين الآباء والأهل فى الوطن لأبنائهم وذويهم الغزاة ، إن الخنبل السعدى يشتاق ولده شيبان الذى خرج مع الجيش إلى فارس ويتذكر طفولته وحدبه عليه لكى يحرك مشاعره(١):

أيهلكنى شيبان فى كل ليـــلة
لقلبىَ من خوف الفراق وجيب
أشيبان ما أدراك أن رب ليلة
غبقتك فيها والغبوق حبيب
فإن يك غصنى أصبح اليوم ذاويا
وغصنك من ماء الشباب رطيب
فإنى حنت ظهرى خطوب تتابعت
فشيبى ضعيف فى الرجال دبيب

وكذلك « أمية بن الأسكر » ، يحن إلى ابنة « كلاب » الذى رحل غازيا(٢) :

أعاذل قد عذلت بغير قصد
ولا تدرين عاذل ما ألاقى

---

(١) نظرات فى الشعر الإسلامى والأموى ص ٤٨
(٢) تاريخ الشعر العربى جـ ١ ص ٨٢

فاما كنت عاذلتى فردى
« كلابا » إذ توجه للعراق
فتى الفتيان إنى عسر ويسر
شديد الركن فى يوم التلاقى
فلا والله ما باليت وجدى
ولا شفقى عليك ولا اشتياقى
وإبقائى عليك إذا شتونا
وضمك تحت نحرى واعتناقى

ومن الحنين كذلك ما لم تفصح عنه الزوجة حياء وتعففا ، ولكن الزوج أشار اليه ، النابغة الجعدى يقول لزوجته (١) :

باتت تذكرنى بالله قاعدة
والدمع ينهل من شأنيهما سبلا
يا بنت عمى كتاب الله أخرجنى
كرها ، وهل أمنعن الله ما فعلا
ما كنت أعرج أو أعمى فيعذرنى
أو ضارعا من ضنى لم يستطع حولا

---

(٢) الشعر والشعراء ص ١٧٩

(١٠) وصف البلاد الجديدة : ومن الأغراض الجديدة فى الشعر الإسلامى ما تطرق إليه الشعراء من وصف البـــلاد التى رأوها فى غزواتهم ، سواء من حيث طبيعتها أو مبانيها ومناظرها . فهذا « زياد بن حنظلة » يصف الخير والخصوبة فى الشام(١) :

وألقت إليه الشام أفلاذ بطنها
وعيشا خصيبا ما تعد مآكله
أباح لنا ما بين شرق ومغرب
مواريث أعناب بنتها قرامله
وكم مثقل لم يضطلع باحتماله
تحمل عبئا حين شالت شوائله

لكن « نافع بن الأسود بن قطبة » يفضل ريف الرى لطيب عيشه(٢) :

رضينا بريف الرى والرى بلدة
لها زينة من عيشها المتواتر
لها نشز فى كل آخر ليلة
تذكر أعراس الملوك الأكابر

(١ ، ٢) الأدب فى عصر النبوة والراشدين ٣١٤/٣١٥

وتجتذبه كنائس الروم بعمارها المهيب وبنائها الضخم وما فيها من زخارف فنية تجتذب نظر « حارثة بن النمر »(١) :

لله باليرموك قوم طحطحوا
أحساب عاتى الروم بالاقدام
فتمطلت منهم كنائس زخرفت
بالشام ذات فسافس ورخام

وفى « مرو » يرى الشاعر منظرا طريفا فلا يملك نفسه من التعبير عنه فى شعره ، إن بردها القارس ، وثلجها الذى يتساقط على أهلها قد دفعهم للاحتماء بثياب غليظة ودس أيديهم فى جيوبها فبدوا كالاسرى(٢) :

وأرى بمرو الشاهجان تنكرت
أرض تتابع ثلجها المذرور
إذ لا ترى ذا بزة مشهورة
إلا تخـــال كأنه مقرور
كلتا يديه لا توارى ثوبه
كل الشتاء ، كأنه مأسور

(١١) المعانى الإسلامية : كثيرة هى القيم الرفيعة والمعانى الإسلامية السامية التى جاء بها الدين الحنيف فتأثر بها الشعراء وراحوا يصوغونها شعرا ، ولو عرضنا نماذج لكل معنى وقيمة ، لطال بنا

(١ ، ٢) المرجع السابق : ص ٣١٥

المقام ، لكن تكفى أمثلة قليلة دالة ، يقول « حسان » فى التوحيد والجنة(١) :

فأنت إله الخلق ربى وخالقى
بذلك ما عمرت فى الناس أشهد
تعاليت ربه الناس عن قول من دعا
سواك إلهـــا أنت أعلى وأمجد
لك الخلق والنعماء والأمر كله
فإياك نستهدى وإياك نعبد
لأن ثواب الله كل موحد
جنان من الفردوس فيها يخلد

وفى التقوى وبر الوالدين يقول « عبدة بن الطبيب » موصيا بنيه(٢) :

أوصيكم بتقى الإله فإنه
يعطى الرغائب من يشاء ويمنع
وبر والدكم وطاعة أمره
إن الأبر من البنين الأطوع

---

(١) ديوان حسان : ص ٣٣٨
(٢) الأدب فى عصر النبوة : ص ٢٦٥

وفى التوبة والاستغفار يقول « الخبل السعدى » وكان فى هجائه للزبرقان بن بدر قد تعرض لأخته خليدة كذبا (١) :

لقد ضل حلمى فى خليدة ضلة
سأعتب نفسى بعدها وأتوب
وأشهد ، والمستغفر الله أننى
كذبت عليها ، والهجاء كذوب

الوفاء بالعهد : كعب بن زهير(٢) :

رحلت إلى قومى لأدعو جماعهم
إلى أمر حزم أحكمته الجوامع
ليوفوا بما كانوا عليه تعاقدوا
يخيف منى ، والله راء وسامع
سأدعوهم جهدى إلى البر والتقى
وأمر العلا ما شايعتنى الأصابع

وانظر إلى أى مدى تغلغلت قيم الإسلام ، حتى يتوب السكير نادما مستغفرا ، يقول أبو محجن الثقفى(٣) :

(١) المرجع السابق : ص ٢٣٨
(٢) الأدب فى عصر النبوة والراشدين : ص ٢٣١
(٣) المرجع السابق : ص ٢٦٦

أتوب إلى الله الرحيم فإنه
غفور لذنب المرء ما لم يعاود
ولست إلى الصهباء يوما بعائد
ولا تابع قول السفيه المعاند
وكيف وقد أعطيت ربي موائقا
أعود لها ؟ والله ذو العرش شاهد

الفرار بدين الله وإباء الضيم : وعبد الله بن الحارث بن قيس بن عدي ، وكان بين المهاجرين للحبشة في أول الدعوة[1] :

يا راكبا بلغن عني مغلغلة
من كان يرجو بلاغ الله والدين
كل امرىء من عباد الله مضطهد
ببطن مكة مقهور ومفتتن
إنا وجدنا بلاد الله واسعة
تنجي من الذل والخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز
يِ في الممات وعيب غير مأمون

(١) نظرات في الشعر الإسلامي والأموي : ص ٣١

إنا تبعنا رسول الله ، واطرحوا
قول النبي وقالوا الموازين

وفى الصبر على المكاره والتوكل على الله نجد مثالا رائعا فى شعر

« عبد الله بن حذف » وكان مع طائفة من المجاهدين لحاصرهم المرتدون فى « جؤاثى » وأضرهم الجوع فصبروا واحتسبوا(١) :

أبلغ أبا بكر رسولا
وفتيان المدينة أجمعينا
فهل لكم إلى قوم كرام
قعود فى جؤاثى محصرينا
كأن دماءهم فى كل فج
شعاع الشمس يغشى الناظرينا
توكلنا على الرحمن إنا
وجدنا الصبر للمتوكلينا

وفى معنى التوكل أيضا والإيمان بالقدر ، وأن الله هو الرزاق نجد من شعر كعب بن زهير(٢) :

---

(١) نظرات فى الشعر الإسلامى والأموى : ص ٤٥
(٢) تاريخ الشعر العربى فى العصر الإسلامى : ص ٣٧

وأعلم أنى متى ما يأتنى قدرى
فليس يحبسه شح ولا شفق
فلا تخافى علينا الفقر وانتظرى
فضل الذى بالغنى من عنده نثق
إن يغنَ ما عندنا فالله يرزقنا
ومن سوانا ، ولسنا نحن نرتزق

قول الحق ، ولو أمام الخليفة صاحب السلطان ، لقد فتح الله على

المسلمين فاستولوا على أرمينية فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ، فأعطى الخمس لمروان بن الحكم ، وهو فى ذلك يخالف نهج الرسول وخليفتيه : أبى بكر وعمر ، ويعلو صوت الشعر منتقدا مدافعا عن الحق ، يقول عبد الرحمن بن الحنبل جنيد الجمحى ، للخليفة(١) :

أحلف بالله رب الأنام
ما ترك الله شيئا سدى
ولكن خلقت لنا فتنة
لكى نبتلى بك أو تبتلى
فإن الأمينين قد بينا
منار طريق عليه الهدى

(١) نظرات فى الشعر الإسلامى والأموى : ص ٦٥

فما أخـــذا درهما غيلة
ولا جعلا درهـما فى هوى
وأعطيت مروان خمس البلاد
فهيهات سعيك ممن سعى

ويُغتال « عثمان » ، وتعقد الخلافة « لعلى » — كرم الله وجهه — لكن الفتنة تطل برؤوسها ممثلة فى معارضة قوية ضد على بقيادة أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير، وتوزّع ولاء المسلمين بين على وعائشة ، وفزع الشعر عما يتوقع من صدام مسلح بين الطائفتين ، وما فى ذلك من هلاك للأمة ودمار للدولة ، يقول « كعب بن جعيل التغلبى »(١) :

أصبحت الأمة فى أمر عجب
والملك مجموع غدا لمن غلب
فقلت قولا صـــادقا غير كذب
إن غدا تهلك أعلام العرب

وفى معركة الجمل حيث خرجت أم المؤمنين على رأس الجيش رغم أن طلحة والزبير لم يحضرا نساءهما فانتقد المسلمون ذلك ، وعبر عن رأيهم « جارية بن قدامة السعدى »(٢) :

(١ ، ٢) المرجع السابق ص ٦٥/٦٦

صنتم حلائلكم وقـــدتم أمكم
هذا ـــ لعمرك ـــ قلة الإنصاف
أمرت بجر ذيولها فى بيتها
فهوت تشق البيد بالإيجـــاف
خوضا يقاتل دونها أبناؤها
بالنبل والخطىّ والأسياف
هتكت بطلحة والزبير ستورها
هـــذا الخبر عنهما والكاف

ويحمل مقاتل من معسكر « على » رضى الله عنه ـــ مصحفا داعيا للسلام ، إلا أن الجند التابعين لعائشة قتلوه فترثيه أمه وهى تعجب لأن أم المؤمنين ترى جماعتها تضل فلا ترشدها(١) :

لامّ إلا مسلماً دعاهم
يتلو كتاب الله لا يخشاهم
وأمهم قائمة ، تراهم
يأتمرون الغىّ ، لا تنهاهم
قد خضبت من عاتق لحاهم

ولا تمنع المنزلة الرفيعة لأم المؤمنين شاعراً مسلماً من تنبيهها إلى

---

(١) المرجع السابق ص ١٨

ما في الحرب من مخاطر على المسلمين فيخاطبها في إجلال(١) :

يا أمنا ، يا خير أم نعلم
أما ترين كم شجاع يكلم
وتختلى هامته والمعصم

وبعد مشاهد أليمة تنتهي موقعة الجمل ، لتبدأ وقائع فتنة أخرى أقسى وأشد هولا ، إنها حروب « علي » رضي الله عنه لجند « معاوية » الذي نازعه الخلافة ، ويتفرق المسلمون شيعاً وأحزابا ، ويلجأ « معاوية » إلى الإغراء ، إنه يطلب من « أيمن بن خريم » قتال « علي » مقابل منحه فلسطين ، فيكتب إليه (٢) :

ولست مقاتلا رجلا يصلي
على سلطان آخر من قريش
له سلطانه وعليّ إثمي
معاذ الله من سفه وطيش
أقتل مسلما في غير جرم
فليمن بنافعي ما عشت عيشي

---

(١) المرجع السابق ص ٦٨
(٢) المرجع السابق ص ٧٠

(١٢) الغزل : آثرت ألا أنهى هذا العرض لنماذج من الشعر الإسلامى دون الإشارة لبعض أمثلة من شعر الغزل الذى نظم فى الإسلام — فى عهد النبوة والراشدين — وقد لا تعد هذه النماذج غزلا بالمعنى المفهوم، إذ هى مطالع لقصائد صيغت فى أغراض أخرى، وهى بهذا الشكل مجرد متابعة لتقاليد شعرية جاهلية ، كانت ترى من تمام الجودة والكمال فى القصيدة أن تبدأ بالغزل أو الأطلال ، ثم إن هذه النماذج الغزلية لم تخرج فى ألفاظها ومعانيها وصورها عما تعوده الشعراء فى الجاهلية ، ذلك لقرب ناظميها من العهد الجاهلى زمنيا، ولأن الغزل غرض جاهلى قديم ولم يطرأ بعد — من قيم وتقاليد الشعر الإسلامى — ما يخلع عليه سمات جديدة أو يكسبه طابعا خاصا ، فذلك سوف يحدث بعد سنوات قلائل ، فى عصر بنى أمية .

إنما قصدت من تقديم هذه النماذج أن أثبت أن الإسلام ورسوله لم يكن يمنع القول فى الغزل أو يرفض إنشاده وسماعه وروايته ، ما دام فى حدود العفة ، لا يحوى فحشا، أو ينتهك حرمات ، أو يجنح إلى عرض ، أو يخدش حياء، يقول شاعر النبى — حسان بن ثابت — فى مطلع قصيدته الحميرية التى نظمها قبيل فتح مكة ورد فيها على أبى سفيان يهجوه ويتوعده ، يتغزل(١) :

هفت ذات الأصابع فالجواء
إلى عذراء منزلها خلاء

(١) الديوان : ص ٧١

ديار من بني الحسحاس قفرٌ
تعفيهـــا الروامس والسماء
وكانت لا يزال بها أنيس
خلال مروجها ، نعم وشاء
فدع هذا ، ولكن ما لطيفٍ
يؤرقني إذا ذهب العشاء
لشمشاء التي قـــد تيمته
فليس لقلبه منها شفـــاء
كأن صبيئة من بيت رأس
يكون مزاجها عسل وماء
على أنيابها ، أو طعم غض
من التفاح هصّره جناء

ولحسان أيضا في يوم أحد يهجو ابن الزبعرى (١) :

منع النـــوم بالعشاء همومٌ
وخيال إذا تغور النجوم
من حبيب أصابه قلبك منه
سقم ، فهو داخل مكتـــوم

---

(٢٠١) الديوان : ص ٨١/٢٠٦

يا لقوم هل يقتل المرء مثلى
واهن البطش والعظام سئوم
شأنها العطر والفراش ويعلوها
لجين ولؤلؤ منظوم
لو يدب الحولىّ من ولد الذرّ
عليها ، أندبتها الكلوم

● ولحسان كذلك من قصيدة فى الفتح[1] :

زادت همومى فاء العين ينحدر
سحّا إذا فرقته عبرة درر
وجداً بشمشاء ، إذ شمشاء بهكنة
حوراء لا دنس فيها ولا خور
دع عنك شمشاء إذ كانت مودتها
نزرا ، وشر وصال الواصل النزر

ويطول بنا الأمر لو تقصينا كل المطالع الغزلية عند حسان ، فلننتقل لمثال آخر عند كعب بن زهير[2] :

---

(١) الديوان : ص ٨١/٢٠٦
(٢) دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى : ص ٨٨

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول
متيم إثرهـــا لم يجز مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا
إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة ، عجزاء مدبرة
لا يشتكى قصر منها ولا طول
تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت
كأنه منهل بالراح معلول
شجت بذى شبم من ماء محنية
صاف بأبطح أضحى وهو مشمول
يا ويحها خلة لو أنها صدقت
موعودها، أو لو أن النصح مقبول
فما تدوم على حال تكون بها
كما تلوّن فى أثوابهـــا الغول
وما تمسك بالوصل الذى زعمت
إلا كما تمسك الماء الغرابيل
فلا يغرنك ما منت وما وعدت
إن الأمانى والأحلام تضليل

ونختم هذه الأشعار الغزلية بقول عبدة بن الطبيب[1] :

هل حبل خولة بعد الهجر موصول
أم أنت عنها بعيد الدار مشغول
حلت خويلة فى دار مجاورة
أهل المدائن ، فيها الديك والفيل
فخامر القلب من ترجيع ذكرتها
رس لطيف ورهن منك مكبول
وللأحبة أيام تذكرها
وللنوى — قبل يوم البين — تأويل

* * *

بقى أن نرصد حول الشعر الإسلامى عددا من الملاحظات .

---

(١) فى الشعر الإسلامى والأموى ص ٥١

سادسا : ملاحظات نقدية فنية حول الشعر الإسلامي

ليس من المنطق أن نتوقع انقلابا كاملا ، وتغييرا جذريا فى الشعر العربى عشية ظهور الإسلام ، وإنما هو تطور محدود النطاق فى البداية (١)

ذلك لأن التقاليد الفنية ، والقيم الشعرية ، تكتسب عبر أجيال وأجيال ، وهى تتأثر ببطء ، وتتغير فى تدرج ، ومهل . فلا غرابة إذن أن نجد استمرار بعض الطوابع والسمات الجاهلية فى الشعر الإسلامى ، خاصة وأن اللغة بقيت كما هى فى جوهرها رغم بعض التطور ، وكذا بقى النسق الموسيقى من عروض وقافية على حاله ، وإلى هذا وذاك فإن البيئة الجغرافية ظلت كما هى عند الكثرة من الشعراء الذين أقاموا فى الجزيرة ولم يرافقوا الجيوش .

إن التغيير الدينى والأخلاق والاجتماعى حق لا مراء فيه غير أن تأثيره على فن الشعر يتم بأناة وريث ، وتظهر نتائجه على مدى زمنى طويل . والصورة العامة للشعر فى صدر الإسلام تقوم على حقيقة حضارية معروفة ، هى أن هناك بالضرورة تداخلا بين فترات التاريخ

---

(١) رصدت هذه الملاحظات على الشعر الإسلامى فقط ، فهى لا تتناول شعر المشركين فى مكة كما لا تتعرض لشعر البادية الذى بقى على حالة الجاهلية ، ولم يتأثر بالإسلام بعد فى عهد النبوة والراشدين .

الحاسمة ، وأنه لا يمكن أن يكون هناك خط فاصل بين فترة والتى تليها ، وبخاصة حين يتصل الأمر بمقومات نفسية بعيدة الغور فى نفوس أصحابها ، أو بقيم فنية أصبحت تقاليد موروثة لا يمكن الخلاص منها فجأة ، أو الاهتداء إلى غيرها من قيم جديدة »(١) :

إن التغيير المادى فى مظاهر الحياة اليومية ، من سلوك وملبس ومأكل ومشرب، كل ذلك يتسم بيسر وسهولة، ولا يجد مقاومة تذكر، بل ربما وجد الترحيب والتشجيع ولكن الأمر يختلف فى مجال الفن والأدب ، لأنه يتصل بروح الأمة وهويتها ـ مثل العقيدة تماما ـ فليس ميسورا أن يتخلى الشاعر عن أسلوبه الفنى ، ويتخذ آخر ، ولا ينتقل من قالب موسيقى إلى سواه ، ولكنه يمزج بين هذا وذاك ، ويضيف بعض الجديد إلى شىء من القديم .

وإذا كان الشعر الجاهلى بسماته الخاصة وأغراضه الثابتة قد توارى بعض الشىء ، وخفت صوته قليلا ، فلكى يفسح المجال لشعر إسلامى أكثر حيوية وملاءمة لما حدث من تغيير هائل فى حياة العرب .

ونحن نلحظ التجديد فى الشعر الإسلامى واضحا بينا من خلال المعانى والأفكار، لأنها تستمد من القيم والمثل التى يؤمن بها الناس ، وهى قد تغيرت تغيرا جذريا بعد الإسلام ، ولذا نرى الشعراء المسلمين يرددون معانى وأفكارا تختلف وتتباين عما كان يتناوله الشعراء

---

(١) فى الشعر الإسلامى والأموى : ص ٦٧

فى الجاهلية ، حسب الأغراض والموضوعات .

وكذلك تتبين الحداثة والجدّة فيما طرقه الشعراء بعد الإسلام من مجالات وآفاق لم تكن معروفة قط أيام الجاهلية ، وهو ما يسمى بالأغراض الجديدة ، وحتى القديم الذى ظل مستمرا طبعه الإسلام بطابعه ، فأكسبه رونقا وبهاء .

وتعرضت لغة الشعر فى العهد الإسلامى ـ متأثرة بالقرآن والحديث ـ لتطور ملحوظ ، وهو ما لفت نظر النقاد والدارسين المتشبعين بالشعر الجاهلى والمعجبين به ، فعدّوا ذلك التطور ضعفا .

أما فى البناء الفنى ، أو نسق القصيدة فقد أضاف له شعراء الإسلام لمسات قليلة ، فى حين بقى الإطار الموسيقى على ما كان عليه من وزن وقافية .

ولنستعرض الآن مظاهر التجديد فى كل مجال على حدة :

أولا : المعـــانى والأفـكار : لا ريب أن الشعر الإسلامى قد جمع بين بعض المعانى الجاهلية مما لا يتعارض وقيم الإسلام ومبادئه ، وبين معان إسلامية مستحدثة . وإذا كان بعض الدارسين يرى أن الشعراء المسلمين لم يوفّقوا تماما فى تمثّل قِيَم الإسلام ومعانيه ، ولم ينجحوا نجاحا كاملا فى استيحاء الدين الجديد ، والنهل من ينابيعه الثرة ، وأرجع ذلك إلى توزعهم بين عامل الموروث الذى ألفوه وعاشوه طويلا أيام الجاهلية ، فكون نسيج عقولهم ، وامتزج بفنهم ، وظل يشدهم للتعبير عنه وتمثله ، وفى المقابل تجذبهم حاجات جديدة

أوجدها الدين الحنيف، وأملتها ضرورة الحياة الإسلامية، وتداخلت هي الأخرى في أفكارهم ومواهبهم ونسج عقولهم ، ودفعتهم إلى تصويرها والتعبير عنها . فهذا التوزع بين العاملين المتقابلين استنفد طاقتهم الفنية ، وقلل من نجاحهم .

ويمكن أن نضيف أسبابا أخرى، مثل عامل الزمن؛ فالقيم والمعاني الجديدة تتطلب وقتا طويلا حتى تختمر في الأذهان وتتشربها العقول، ثم عنها الشعر . وكذلك وجود الشعراء المسلمين في بيئة جاهلية ـ لا تزال ـ وأكثر الجمهور المتلقي من الجاهليين فكرا وروحا وثقافة ، وهم لا يستطيعون الانفصال عن جمهورهم ومستمعيهم .

ولا شك أن صدورهم في كثير من الأشعار عن حافز الرد على المشركين ونقض قصائدهم ، جعلهم يتابعون نفس التقاليد الفنية، ولو خالفوا تلك التقاليد لأخفقوا في الرد عليهم وإفحامهم . يؤكد ذلك أن الأشعار التي خرجت عن ذلك النطاق ولم يقصد بها هجاء المشركين أو مناظرتهم ظهرت فيها المعاني الإسلامية واضحة ، كرثاء الشهداء ووصف البلاد الجديدة ، ومعارك الفتوح ، والحنين والغربة ، وما تناول خلقا أو مبدأ إسلاميا .

ورغم كل ما سبق ، فإن كثيرا من الأفكار والمعاني الجديدة عرف طريقه إلى الشعر الإسلامي ، وخاصة في الأغراض المبتكرة ، وبعضه ظهر في موضوعات قديمة أيضا .

ثانيا الأغراض والموضوعات : كان الشعر الجاهلي يعكس حياة عرب الجزيرة فى انحصارهـــا وحدوديتها ، فهو يتنقل فى ميادين ثابتة لا تتغير :

(١) مدح للملوك والوجهاء الأثرياء ، يشوبه الاسترفاد ويجنح إلى المبالغة ، ويصدر — إلا فى النادر — عن ملق ورياء .

(٢) فخر بالنفس والقبيلة ، يدور حول محاور معدودة من النسب والحسب ، والشجاعة المتهورة أحيانا ، والكرم الذى يبلغ حد الإسراف والسفه أحيانا .

(٣) رثاء يقترف من معين المدح غالبا ، ويخلفه إحساس حاد بالضياع والفناء بسبب الفراغ الدينى الرهيب .

(٤) هجاء لا يتورع عن الفحش والإقذاع ، سالبا للممادح والمفاخر ، مضفيا على الخصم مثالب ونقائص بالكذب والادعاء ، والمبالغة فى الذم .

(٥) غزل قـــد يخالطه بكاء الأطلال ، ويقتصر على الوصف الظاهرى لمحاسن المرأة الجسمية غالبا ، أو المغامرات التى تخدش الحياء ، وتمس العرض والخلق .

(٦) وصف الطبيعة حية وصامتة ، وهى فى البيئة الصحراوية فقيرة قليلة التنوع محدودة الآفاق .

وأخيراً أبيات الحكمة التي قد تأتي ختاما للقصيدة ، وقد لا يتطرق إليها الشاعر .

ثم يشرق الإسلام بنوره ، وتتغير حياة العرب من وثنية مشركة إلى مؤمنة موحدة . ومن قبلية ضيقة إلى إنسانية رحبة عريضة . ومن مادية متدنية إلى روحية سامية رفيعة .

ويتغير الشعر كما تغيرت الحياة ، وتتسع أمامه الآفاق ، وتتعدد الميادين ، وتظهر أغراض جديدة ، وموضوعات لم تكن من قبل معروفة ولا مطروقة ، بل وتكتسب الأغراض القديمة روحا جديدا وجوا متألقاً .

ويمكن أن نطمئن إلى عدد محدود من الأغراض قد ترك تماما مع إشراق الهدى المحمدي ، وحتى العصر الأموي ، وذلك لتعارضها مع قيم الإسلام وأخلاقياته .

من تلك الأغراض ذكر الخمر ، ووصفها ، والتغني بها ، والشوق إليها ، وبيان أثرها في النفوس ، وتصوير مجالسها وشاربها ، وسقاتها وصناعها وبائعيها ، وكل ما يتصل بها .

ومنها شعر المجون : سواء ما يتعلق بالغزل الفاحش ، واللهو العابث ، والمغامرات المستهترة ، أو مجالس الغناء والقيان والطرب .

ويدخل في هذا النطاق الشعر الذي يتحدث عن الميسر ولاعبيه ومجالسه ورهاناته .

ثم تأتى المنافرات أو الهجاء القائم على ما يحط من الشرف ، ويخدش الحيـــاء ، ويمزق الأواصر ويورث البغضاء والثارات ، ولو تأملنا فى حكمة تحريم تلك الأغراض بعد الإسلام لوجدنا أنها ليست منافاتها للقيم الدينية فقط ، وإنما لما تسببه وتؤدى إليه من تخريب للنفوس ، وإذهاب للعقول ، كما أنها مضيعة للصحة والمال وهدم للفرد والجماعة ، وهى على الجملة إهانة للإنسان الذى كرمه الله على سائر خلقه حتى الملائكة ، مما يناقض الدعوة الإسلامية لقوة الفرد والجـــماعة ، قوة مادية ومعنوية ، وكذا الدعوة للتماسك والترابط والأخوة .

ونستعرض الأغراض التى ظلت من الجاهلية ، فنظم فيها المسلمون مع إضفاء الصبغة الإسلامية عليها ، وتصفيتها مما يتعارض وتلك الصبغة من أفكار أو ألفاظ :

المديح : كان المدح فى الجاهلية تقربا للممدوح طلباً لنفعه واتقاء لضره ، وكان وسيلة للتكسب عن طريق العطايا والهبات التى يمنحها الممدوح مكافأة للشاعر .

وفى النادر القليل يصدر المدح عن عاطفة صادقة وإعجاب حقيقى ، ولكنه غالبا يأتى مراءاة ونفاقا .

فلما جاء الإسلام قل شعر المدح إلى حد كبير ، وربما صار قاصرا على مدح الرسول ﷺ وإشارات قليلة للخلفاء الراشدين ، وكلاهما

ينبع من حب صادق ، وإعجاب منبعه عميق ، بما فى شخصية النبي من سمو وترفع ، وما لدى الخلفاء من تقى وورع وطاعة ، وتحرد قيق للحق والعدل ، وبعد أن كان الحافز فى المديح هو التقرب للملك أو للوجيه الثرى ، صار قربى إلى الله وطاعة له ، فالرسول وخلفاؤه يمثلون رموزا للإسلام وتجسيدا لمبادئه وتطبيقا لأوامره ، ولذا فإن مدحهم ليس مدحاً لذات الشخص - وإن كان خليقا به - ولكنه فى المقام الأول مدح للمعانى والمبادىء التى يمثلها ، ثم تفرع عن المديح الفردى مديح للجماعة الإسلامية ، وتمجيد للدعوة الجديدة ، ويرمز للجماعة الإسلامية بالمهاجرين تارة وبالأنصار أخرى ، وبهما معاً أحيانا .

وهذا المدح الجماعى يبرأ من المجاملة ، ويبتعد عن المبالغة ، وهو يهدف بالدرجة الأولى إلى إعلاء شأن الدين ورفع لوائه ، والإشادة بالمسلمين الأوائل ، الذين حملوا عبء الجهاد فى الأيام العصيبة من بداية الدعوة ، حين كان الأعداء كثرة ، والقوة محدودة ، والنصر عزيز المنال .

ويمكن أن نجمل خصائص المدح أيام النبوة والراشدين فى :

(١) صدوره عن عاطفة قوية وإعجاب صادق بالرسول ، وأصحابه وخلفائه ، وبالجماعة الإسلامية من مهاجرين وأنصار ، فلا نفاق أو رياء ، ولا ملق أو تقرب ، ولا شبهة للكسب والمنفعة .

(٢) صفات الممدوح ، أو مواضع المدح ، تجمع بين قليل مما عرف فى الجاهلية كالشجاعة والكرم والمروءة والنجدة ، ثم تضيف

إليها مناقب وصفات إسلامية مشرقة ، كالجهاد في سبيل الله ، والتطلع للشهادة ، ونشر الدين وإعلاء كلمة التوحيد ، وكذلك نبل الأخلاق ، وطاعة الله ورسوله ، والحرص على الجماعة الإسلامية والسعي لخيرها ، والعمل بكتاب الله وسنة نبيه ، والبعد عن نواهيه وما يغضبه .

(٣) ذكر الحقائق والوقائع دون مبالغة أو تهويل : لقد كان سجل البطولة الإسلامية ومفاخر المسلمين حافلا زاخراً ، وما فيه من حقائق يفوق تصور الخيال ، وروعة المبالغة .

(٤) استخدام لغة سهلة تتضمن مفردات وعبارات دينية إسلامية ، وتنأى عن الكلمات والعبارات الجاهلية .

الهجاء : اتسم الهجاء في الجاهلية بالاعتداء على الأعراض والحرمات ، وسلب الشرف ، والعيب في الأنساب والأحساب ، وكذلك الذم باللفظ الجارح ، والمعنى القارص ، فكان الناس يضطرون إلى شراء ألسنة الهجائين ، وتجتنب إثارتهم ، كما كان يحدث مع الحطيئة . وأحيانا يضطر المرء إلى استئجار شاعر للرد على من يهجوه .

ثم بعث الرسول عليه السلام بتعاليم الدين السمحة و خلقه الرفيع ، فحذر من التنابز بالألقاب ، ومن الغيبة والنميمة ، و من التباغض والتخاصم ، ودعا إلى الأخوة والمحبة والتسامح ، وطالب المجتمع المسلم بأن يكون جسدا واحدا مترابطا ، ويكون أفراده أعضاء في الجسد ،

يؤلم لجميع ما يحيق بالواحد ، وحينئذ كف الشعراء المسلمون عن الهجاء تأدبا بأدب الإسلام ، إلا أن شعراء الشرك فتحوا نيران ألسنتهم على النبى الكريم وعلى المسلمين ـ مهاجرين وأنصارا ـ فأذن الرسول ـ ﷺ ـ للشعراء الأنصار برد الأذى ، والدفاع عن النفس والدين ، فالهجاء من المسلمين كان اضطرارا وحالة من حالات الدفاع .

فلما فتحت مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، توقفت المعارك الكلامية بين المشركين والمسلمين ، واختفى الهجاء تقريبا بقية عهد النبوة والراشدين ، وكان الخلفاء رضوان الله عليهم يعطون الشاعر الهجاء ما يكف لسانه عن إيذاء المسلمين ، ويعاقبون من يستمر فى الهجاء ، فلما جاء بنو أمية تغير الحال .

ونستطيع تلخيص سمات فن الهجاء الذى مارسه المسلمون فيما يلى :

(١) لجأ إليه شعراء الإسلام دفاعا عن النفس والدين ، بعد أن تجاوز المشركون فيه الحدود ، وصار الصمت ضعفا .

(٢) ابتعد عن الفحش والإقذاع ما أمكنه ، وركز على جحد المشركين حق الله وقدره ، وكفرهم به ، وتكذيبهم نبيه .

(٣) كان حسان يستغل ما فى أنساب المشركين من هنات ، وقد استخدم فى أحيان قليلة ما يحط الشرف ويخرج عن قيم الإسلام ، وعذره فى ذلك حاجته الى إفحام الكفار ، ورد سهامهم وإخراس ألسنتهم .

(٤) كان فيه هجاء الأشخاص الفردى ، وهجاء القبائل الجماعى ، وهو فى كلا الحالين رد على هجاء سابق للمشركين .

(٥) لم تخصص للهجاء قصائد مفردة ، ولكنه يأتى مختلطا بأغراض أخرى كالفخر ووصف المعارك ، أو الحرب النفسية .

(٦) وهو مثل بقية فنون الشعر الإسلامى تتناثر فيه كلمات إسلامية ومعان دينية بنسب مختلفة .

الفخر : كان الشاعر الجاهلى بطبيعته تيّاها معتدا بنفسه وجنسه يكثر من الفخر فى قصائد خاصة بغرض الفخر، وفى أبيات عبر قصائد نظمت لأغراض أخرى ، كان يزهو ويباهى بما لديه مما يستحق الفخر والمباهاة ، وقد يختلق ويتخيل ما يفخر به ، أو يفخر بما سوف يفعله وما سيكون عليه ، يفخر بشخصه وجماعته القريبة وقبيلته وعشيرته ، ثم يتمادى ويفخر بأصله العربى .وكان مناط الفخر أولا هو الشجاعة التى تصل إلى التهور ، والقوة التى تدفع للعدوان ، والجهل الذى يجر إلى الظلم ، ثم الأخذ بالثأر ، وعدم الصبر على الضيم والذل .

وكذلك الفخر بالحسب والنسب ، وكرم المحتد ، ونقاء الأصل والعصبيه القبلية . وتأتى المواقع والأيام التى شهدها أو شهدتها قبيلته وحققت فيها انتصارات ، ثم يباهى بقيم أخلاقية وصفات حميدة ، كالمروءة والنجدة وإغاثة الملهوف ، والعفة وإكرام الضيف ، والترفع عن الصغائر ، ولا ينسى أن يفاخر بلهوه وعبثه من مغامرات عاطفية

وتشبيب بالنساء ، وشرب للخمر ومجالس الغناء والجوف والخروج للصيد .

ومن مكة - الأرض الحرام - يشرق فجر جديد للعالم أجمع ، ويكون العربي هو المثل والقدوة ، وهو المبلغ والداعي ، ولا يقف الدين الحنيف من نزعة الفخر العربية الإنسانية موقف التعنت والرفض المتصلب ، ولكنه كعادته يتخذ منها موقف التوجيه والتهذيب ، فيفخرون بأمجاد أسمى وأعز كالتسابق إلى الإيمان بدين الله ومفارقة الشرك وكذلك المبادرة بالهجرة طاعة لله ورسوله ، أو نصرة الدين والجهاد في سبيل الله . وأصبح البلاء من أجل العقيدة وطلب الشهادة مناط فخرهم الأول ، ثم يأتي الزهو بنصر الله وتأييد الملائكة .

وفي المجال الأخلاقي تكون التقوى ، وطاعة الله والرسول ، ثم اجتناب المحرمات والبعد عما يستكره .

وأخيرا ما رضي عنه الإسلام وأبقاه من طباع الجاهليين وأخلاقهم ، كالكرم وقرى الضيف ، والنجدة وإغاثة المستجير ، والتعفف عما لا يملك ، والشجاعة في الميدان .

واستعاض عن الفخر بالأصل والحسب فخرا بالانتماء إلى الإسلام الحنيف ، وعن القبيلة والجنس اعتزازا بالنبي وجماعة المسلمين والصحابة المجاهدين .

وبذا يمكن استخلاص سمات الفخر الإسلامي فيما يلي :

(١) التقليل ما أمكن من الفخر والمباهاة لأن الإسلام يدعو إلى

التواضع ، ويرى أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين وأن خيلاء الفرد وكبره معصية ومكروه .

(٢) ما بقى من فخر طبعه الإسلام بطابعه، فصار مناطه ما يتصل بالدين من الإيمان والتقوى ، والقتال حتى النصر أو الشهادة فى سبيل الله ، وما يتصل بجماعة المسلمين من طاعة الرسول والتآخى والسعى لخير الجماعة،وأخيرا ما يتعلق بالخلق الرفيع سواء ماكان جاهليا أقره الإسلام أو ما بعد مع الدين القويم .

(٣) انتفى من الفخر كل ما يتعلق بالحسب والنسب ، وما يثير العصبيه القبلية ، وحل محله شرف الانتماء للدين ولجماعة المسلمين .

(٤) الفخر بالنفس وبالجماعة ممكن فى إطار إسلامى لا يهدد تماسك المسلمين ، ولا يحيى الضغائن ، كما فعل « حسان » فى زهوه بالأنصار لما قدموه من نصرة الرسول ، واستضافة المهاجرين ، والدفاع عن الإسلام ، وكذا ماكان من فخر « نابغ بن نطبة » بقومه بنى تميم لمسارعتهم إلى الدخول فى طاعة الرسول والهجرة ومناصرة الإسلام مما يعزز ماضيهم المجيد فى الجاهلية .

(٥) تخلص فخر الشعراء المسلمين من المبالغة وتجاوز الحد مكتفيا بذكر الحقائق ، والتعبير عن الوقائع .

(٦) استخدام لغة سلسة تتضمن ألفاظا وجملا ذات صبغة إسلامية، وتبعد عن التقعر والغرابة .

الرثاء : يعد الرثاء من أقدم فنون الشعر العربي ، وهو يقترب من المدح في كونه يعدد صفات العظمة والبطولة والسكان في المرثي - كما في الممدوح - ثم يضيف الجزع الشديد لموته ، والخساره الشخصية أو القبلية أو العامة الناجمة عن فقده .

ولأن العرب في الجاهلية كانوا غير موحدين ، ولا يؤمن أغلبهم بالبعث والحساب ، لذا كان رثاؤهم يتسم دائما بالفجيعة والحسرة الشديدة لفقد الميت ، ولا يحوي أية إشارة إلى مصيره الأخروي .

وإذا كان قتيلا في حربه ، احتلت الدعوة للثأر مكانها ، وكثر الحديث عن روحه القلقة الهائمة حتى يثأروا له .

ثم سرت الروح الإسلامية في فن الرثاء ، إبان بعثة الرسول عليه صلوات ربه وسلامه ، وانفجار الصراع بين الإسلام والشرك ، وتتابعت الغزوات في عهد النبي إلى أن فتحت مكة ، وبدأت الفتوح ونشر الدين في آفاق الأرض، وهنا يتسم الرثاء على يد الشعراء المسلمين ببيان بسالة الشهيد في حومة الوغى ، وحرصه على إعلاء كلمة الله ، وإصراره على النصر أو الاستشهاد ، ثم ينتقل الشاعر في رثائه إلى بيان ما أعد للشهداء لدى الله من نعيم الخلد ، وعلو المنزلة وكونهم أحياء عند ربهم يرزقون. وإن كان المشركون يفتقدون سمو الغاية من القتال، ويشعرون بعبثية الموت في المعركة ، اللهم إلا ما تواضعوا عليه من الحرص على الثبات والشجاعة - إذا كانوا هم كذلك - فإن المسلمين قد توافر لهم نبل المقصد وشرف الغاية ، وأي هدف أسمى من الجهاد في سبيل الله ، والدعوة لدينه والاستشهاد دفاعا عنه ؟

لذلك ظهرت فى الرثاء سمات الصبر والاحتساب ، والرضى بقضاء الله ، والامتثال لحكمه ، والاستبشار بجنته وثوابه ، وما وعد به الشهداء والمتقون ، فخفف هذا من الجزع الشديد ، والأسى الفاجع على الفقيد ، وحل الصبر على البلاء واحتساب الأجر عند الله محل اليأس والكمد . وحتى فى ظروف الموت العادى أصبح الرثاء مختلفاً كذلك لأن الميت مسلم موحد ، أطاع الله ورسوله ، وأدى فرائض دينه ، وعمل بأوامر ربه واجتنب محارمه ، فثواه الجنة ، ومن هنا أحست الخنساء بالحزن مضاعفا على أخيها صخر بعد أن هداها الله للإسلام : « كنت أبكى لصخر من القتل ، فأنا أبكى له اليوم من النار » .

وكل هذا الجديد أضيف إلى ما أقره الإسلام فى الرثاء الجاهلى من بيان عظمة الميت أو الشهيد ، ومكانته بين قومه وصفاته الأخلاقية النبيلة .

وخلاصة ما يقال عن الرثاء الإسلامى :

(١) احتفظ ببعض السمات الجاهلية مثل : بيان العظمة الإنسانية والخلقية والمكانة الاجتماعية للفقيد ، وكذلك الحزن لفقده .

(٢) استبدل بالجزع المهلك ، والأسى الفاجع ، الصبر والاحتساب والامتثال لقضاء الله .

(٣) فى حالة الاستشهاد يصبح الفرح بالجنة ورفعة المنزلة عند الله هو الطابع الغالب على الرثاء .

(٤) يضاف إلى ذلك ذكر ما أبداه الشهيد من بلاء فى سبيل الله ودفاع عن الدين وزود المشركين .

(٥) وإذا لم يكن الفقيد من الشهداء فهو مسلم عاش حياته معليما قربه محبا لنبيه ـ عليه السلام ـ عاملا بكل ما أمر به ، مبتعداً عن كل ما نهى عنه ، ولذلك فإن الجنة مقره إن شاء الله .

(٦) حملت كلمات الصبر والرحمة والأجر والاحتساب ، ثم الشهادة والجنة والجهاد فى سبيل الله ونصرة الدين ، بدلا من ألفاظ الهلاك والقتل والجزع والفقد والثأر وشفاء الغليل .

شعر الحماسة : مرت بنا أثناء استعراض نماذج من الشعر الإسلامى ثلاثة أغراض هى : وصف المعارك ، والحرب النفسية ، ثم الإقدام على الجهاد والفرح بالشهادة ، وهى جميعا تنضوى تحت ما عرف فى الجاهلية بشعر الحماسة مع الاحتفاظ فى الذهن بالفارق بين مفاهيم الجاهلية والإسلام ، وشعر الحماسة مصطلح قديم يطلق على كل ما يتصل بالقتال سواء فيه وصف الاستعداد السابق للحرب ، من خيل وأسلحة وجند ، أو وصف ساحة الحرب وشجاعة الفرسان ، أو التنزيل عن المقاتلين بتخويف العدو من قوتهم وجسارتهم . وكل هـــذه المجالات ظلت مطروقة بكثرة من الشعراء المسلمين ، بعد أن خلعوا عليها من سمات الدين وروحه ما أعادها خلقا جديداً مثل :

(١) فى بيان الأسلحة والمعدات ذكر الشعراء الإسلاميون

أسلحتهم الحربية المادية ، وأضافوا إليها أسلحة جديدة منحها إياهم الدين الحنيف ، كالتقوى والإيمان والصبر وتبل الهدف من القتال ، وتأييد الله وملائكته ووعده المؤمنين بالنصر ، ما داموا صادقين صابرين ، ثم الثبات فى الميدان لتحقيق النصر أو الفوز بالشهادة ، بل كان حرص المسلم المجاهد على الاستشهاد أشد من حرصه على الحياة، وذلك أدعى لفزع الكفار من أى سلاح فاتك .

(٢) فى وصف المعارك وبسالة المجاهدين تبدو لنا ألوان من البطولة أقرب إلى المعجزات ، وفى تصوير السعى للجهاد والإقدام على الشهادة تحكى قصص خيالية وخوارق يصعب تصورها ، ولكنها جميعاً حقائق ووقائع لأشخاص معروفين منحهم يقين العقيدة وصدق الإيمان قوى لا تفل .

(٣) فى مجال الحرب النفسية ، وهى أناشيد حماسية تردد قبل المعركة تحث المجاهدين على الصبر والإقدام ، وتستنفر الأعوان للنجدة والمناصرة ، وتدعو للثبات ، وترهب الأعداء بما تصفه من عدة المجاهدين وعددهم، وتفزعهم بما تصوره من جسارة المسلمين وعزيمتهم وفيما بعد الإسلام يكون الاعتداد بتأييد الله والملائكة والنصر الذى وعد به المجاهدون ، وبذلك يكون الترهيب والتخويل بالسلاح المادى والمعنوى ممثلا فى قوة الله التى لا غالب لها ، وتأييده الذى لا يعدله تأييد .

(٤) اختفت كلمات الثأر والانتقام ، وتوارى التعصب القبلى

بالحق والباطل ، وظهرت مفردات وشعارات إسلامية جديدة كالجهاد والثبات والشهادة والجنة ، ونصرة الدين والرسول وسلاح الإيمان والتقوى ، وظهور الحق ودحر الباطل ، والانتساب للإسلام وليس للجنس أو القبيلة ، والقتال لتحقيق غاية سامية وليس ثأراً أو مجداً شخصيا .

الغزل والنسيب : يرى عدد كبير من الدارسين أن الغزل كان من الأغراض التي هجرها الشعراء الإسلاميون ، لكني لست مع هذا الرأي ، حتى لو حددنا فترة الترك بعصر النبوة والراشدين ، ذلك لأننا نلتقي بنماذج عديدة للغزل إبان تلك الفترة ، وخاصة مطالع القصائد في أغراض مختلفة ، وكذلك ذكر الدكتور عبد القادر القط قصيدة مثبتة في « الأمالي » للشاعر : « مضرس بن قرظ » ، وأبيات « لعبد الله بن علامة » ، ثم مقطوعة « لعبد بني الحسحاس » ، وكلها شعر غزلي رقيق . والأقرب للدقة أن نقول : إن الغزل كغرض قائم برأسه ، تخصص له قصائد كثيرة كاملة ، ترك لصنوات في أول العهد الإسلامي لكنه ليس الترك العام ، باعتباره محرما أو محظوراً وإنما هو الإهمال والتراخي بسبب الانشغال بأمور أخرى ، فلم يؤثر عن النبي عليه السلام أو خلفائه رضي الله عنهم ، ما يفيد الحظر أو التحريم أو حتى الكراهة ، لقد سمع الرسول قصيدة كعب بن زهير « بانت سعاد » وفيها مقدمة غزلية طويلة ، فلم ينكر عليه ، وسمع ﷺ لحسان بن ثابت

قصائد عديدة تبدأ بالغزل ، ولم يرو عنه إنكار أو إعراض ، وقال الحجاج : دخلت المدينة ، فقصدت إلى مسجد النبي ﷺ ، فإذا بأبي هريرة قد أكب الناس عليه يسألونه ،فقلت هكذا : أفرجوا لي عن وجهه ، فأفرج لي عنه ، فقلت له إنما أقول هكذا :

طاف الخيالان فهاجا سقما
خيال أروى ، وخيال تكتما
تريك وجهاً ضاحكا ومعصما
وساعداً عبلا وكفا أرمما

فما تقول فيه ؟ . قال : قد كان رسول الله ﷺ ينشد مثل هذا في المسجد فلا ينكره »[1]

فالغزل على إطلاقه ـ ومنه مطالع القصائد ـ موجود في العصر الاسلامي خلال البعثة النبوية وعهد الراشدين، وسوف يتسع ، وتكثر نماذجه وتستقل به قصائد عديدة ، بل ويصبح باباً ضخما من أبوابه الشعر الأموي ، ويتفرع لأنواع مختلفة بين عذري عفيف ، وحسي جريء . ويفرغ له شعراء يقصرون جهدهم عليه مثل عمر بن أبي ربيعة ، وذي الرمة وابن قيس الرقيات .

ونجمل سمات الغزل عبر عهد النبوة والراشدين في :

---

(١) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٠٥

(١) نماذج الغزل فى العهد النبوى وفى حكم الراشدين تتمثل فى قصائد ومقطوعات قليلة ، وفى مطالع كثير من القصائد لأغراض مختلفة .

(٢) لم يعترض الاسلام على الغزل ولم يحرمه ، ولم ينكره الرسول ﷺ ، ولكن الشعراء المسلمين شغلوا عنه لأنه مرتبط بالفراغ والدعة ، وهم كانوا مشغولين بما هو أهم من نشر الدعوة فى آفاق الأرض والجهاد فى سبيل الله والدفاع عن الدين .

(٣) يفهم ضمنا أن الاسلام بما بثه فى النفوس من قيم أخلاقية سامية ، وحماية للحرمات وحفاظ على الشرف ، وبما أسبغه على المرأة من تكريم وإجلال ، وبما أشاعه من العفة والحياء ، لكل ذلك فقد كثر الغزل المتهتك ، والتشبيب الحسى المستهتر ، وما كان خادشا للحياء أو معتديا على الأعراض والحرمات ، ولكنه رضى عن الغزل الرقيق العفيف ، الذى يعبر عن احترام للمرأة وحفاظ عليها واعتزاز لها ، ونستطيع أن نجد من أمثال هذا الشعر كثيرا من المقطوعات فى كتب المختارات والتراجم ، أغلبها لشعراء مقلين ، كانوا يقولون الشعر فى وقدة انفعال خاص ، استجابة لحدث معين فى حياتهم ، على أن من بين الشعراء المعروفين أيضا من نجد لهم أمثال تلك المقطوعات البالغة الرقة فى أسلوبها وعواطفها ، وكأنها لشاعر طال عهده بالحضارة واللين .(١)

---

(١) فى الشعر الإسلامى والأموى : د . عبد القادر القط ، ص ٦٦

(٤) لا نستطيع القول بأن الغزل تعرض لتطور كبير فى أول العصر الاسلامى ، اللهم إلا ما أشرنا إليه من بعده عن الحسية ، والاستهتار والعبث ، وميله للرقة والعفة ، وحرصه على ما يرضى الخلق القويم وعلى الأعراض والحرمات لكن التطور الحقيقى سيظهر بعد ذلك فى عهد الأمويين .

الأغراض الجديدة : بالإضافة لما أدخله الإسلاميون من سمات جديدة ، وطوابع مستحدثة على الأغراض المطروقة فى الجاهلية ، فإننا نلحظ أثرهم التطويرى أيضا متمثلا فى ابتكار أغراض وموضوعات لم تعرف من قبل ، وهى :

١ ـ وصف البلاد الأخرى : عاش العرب قرونا فى شبه الجزيرة لا يغادرونها ، إلا نادرا ، وفى رحلات محددة المسار بهدف تجارى مسبق ، وكان القائمون بها تجاراً ، وأصحاب رؤوس الأموال ، فلا شأن لهم بأحوال البلاد وصفات أهلها . وأحيانا يقوم أحد الشعراء برحلة إلى ملك أو عظيم لمدحه واسترفاده إلا أنه لا يلتفت غالبا للبلاد وأهلها ، فهو قد أعد الشعر مسبقا وهو يرغب فى تحقيق هدف الرحلة والعودة سريعا . خلاصة القول أننا لا نجد نماذج لوصف البلاد وسمات السكان خارج شبه الجزيرة قبل الإسلام .

فلما بعث النبى عليه السلام مبشرا وهاديا للإنسانية كافة ، وبعد تثبيت دعائم الإسلام بفتح مكة ، بدأت حركة نشطة لنشر الدين

وهداية الناس، ولئن كان الأمر قد اقتصر فى عهد الرسول على غزوات سريعة محدودة الأثر والبعد، إلا أنها كانت إشـــارات بدء، وأمثلة تحتذى ، ثم تبعتها غزوات ضخمة بعيدة المدى واسعة الأهداف ، وفيها انطلقت الجيوش الإسلامية شرقا وغربا ترفع راية الحق والهدى ، وتحقق النصر الذى وعد به الله سبحانه ، ووعده الحق . واطلع العرب على بلاد تختلف عن بلادهم كل الاختلاف ، سواء فى البيئة الطبيعية أو فى نظم الحيـــاة وعوائد البشر ، أو فى درجة الحضارة والتقدم المدنى .

ولم يقصر الشعر الإسلامى فى وصف تلك البلاد ، والتعريف بأهلها وطبائعهم وسلوكهم وطرق معايشهم وملابسهم ، وكذلك مبانيهم ومعالم حضارتهم ، وبإيجاز : حاول أن ينقلنا إلى تلك الدنيا الجديدة لنراها كما يراها ونحس بإيقاع الحياة فيها كما أحس .

ونستخلص ملامح هذا المجال الشعرى الإسلامى فى :

(١) لأن هذا الغرض جديد وناشىء فمادته محـــدودة ، وهو لا يتكىء على تراث سابق ، ولكنه يبدع تقاليده الخاصة ويتخذ لغته المناسبة .

(٢) هدفه الأول هو التعريف بالبلاد وما يميزها من ظواهر طبيعية وحضارية ، ولذلك يلتقط الطرائف اللافتة مثل البرد القارص، أو الليالى الكثيرة أو الأفيال المشاركة فى الحرب ، ثم عروش الملوك

والكنائس الضخمة ، ويطرق أحياناً لملابس الجند وتصرفاتهم .. وهكذا .

(٣) يغلب عليه طابع الدهشة والتعجب واللقطات السريعة العابرة دون تأمل أو استبطان للظواهر .

(٤) لغته سهلة بسيطة ، فلا تقعر ولا كلمات نادرة ، ولا ألفاظ ضخمة غريبة أو أساليب معقدة .

(٥) يخلو من التشبيهات والصور المألوفة ؛ لأنه يعرض مناظر غير تقليدية ، ويحفل بطرائف مستحدثة لا نظير لها ، ولذا فهو لا ينهل من معين سابق ولا ينسج على منوال قديم .

٢ — الحنين والغربة : من أرق وأعذب ما أضافه شعراء الإسلام إلى الديوان العربي ، تلك النغمات الرقراقة الحارة المتدفقة ، التي عبرت تحمل الشوق والحنين من المجاهدين المغتربين إلى وطنهم وأهلهم ، ثم ترجع حاملة اللهفة والتشوق والحنان من الأهل والوطن لذات الأكباد البعيدة ، وحقيقة أن بعض الدارسين يرى المطالع الطللية لبعض القصائد الجاهلية صوراً من الحنين ، يتذكر الشاعر ماضيه أيام كان والمحبوبة في منازل متجاورة ، فيحن لتلك الأيام ويزور آثار المنازل وأطلالها ، سائلاً عن أهلها الراحلين ، متشوقاً لذكرياته وسعادته الضائعة .

لكن البون شاسع بين الحنين والغربة فى العصر الإسلامى وبين تلك المطالع ، لقد صار فنا محدد القسمات واضح المعالم ، يختلف كماً وكيفاً ، وله سمات ظاهرة يمكن إيجازه فى :

(١) أصبح مقاطع كبيرة فى بعض القصـــائد ، كما اختصت به قصائد كاملة طويلة ، وتعددت نماذجه وكثرت ، خاصة حين امتدت الفتوح الإسلامية إلى أقاصى الأرض شرقا وغربا مع نهاية عهد الراشدين حتى الأمويين .

(٢) حفز إليه إحساس حاد بالغربة ، لأن الشاعر المسلم انتقل مع الجيوش لبلاد شديدة الاختلاف عن وطنه، وعاشر أناساً لايشبهون أهله ، ولا يتكلمون لغته ، وكذا انبعث نتيجة حنين فياض للوطن بأكمله ، وليس لحى أو إقليم أو موضع ، حنين للسماء والأرض والمناخ والنبات والحيوان والطير ، حنين للخيام والنوق والشياه ، الرياح والبرق والمطر ، اشتياق عارم للأهل والأحباء والناس ـ كل الناس ـ فى ذلك الوطن .

(٣) ويأتى الحنين والتشوق من اتجاهين متراسلين :

حنين من الأهل المجاهدين الأبطال ، الذين خرجوا يعلنون كلمة الحق وينشرون التوحيد ، ويشيعون الإيمان ، ثم حنين من المغتربين يبعثونه للأهل وللوطن بكل مفرداته وذراته وظواهره .

(٤) وكلا النوعين يخرج فى لغات رقيقة وإحساس دافق فياض ومشاعر حارة صادقة .

(٥) وقل ما شئت عن جمال اللغة وسلاستها وموسيقيتها وعن عذوبة الألفاظ ورقتها ودقة تعبيرها ، وعن اتساق الأسلوب وروعته وبلاغته .

(٦) بعد أن كان الشاعر المسلم الحنان يكتفي ببث أشواقه في مناجاة مباشرة للأحباب والوطن والماضي السعيد ، بدأ يتخذ وسائل فنية للتعبير عن الكم الهائل من المشاعر الثائرة ، فكانت الحمامة رمزا ، يفصح من خلاله عن أشواقه وتحنانه ، كما يقارن بين حنينها وحنينه ، وشجوها وشجوه ، فيكون هو الأشد لوعة والأعمق لهفة ، لأنها تسجع بلا عبرات وهو يبكي بدمع غزير ، وراح يلتفت كذلك إلى نباتات وأشجار وطيور كان يراها في وطنه ، فيحتفل بها ويحن إليها تعبيرا عن حنينه إليه .

٣ ـ المعاني الإسلامية : وهذا هو ثالث الميادين التي فتحها الشعر الإسلامي ، ويعد أرحبها وأكثرها تنوعاً ، والشاعر العربي متمرس منذ القدم بالحديث عن القيم الأخلاقية والمثل ، وهي إحدى مجالات فخره واعتزازه .

ولا جدال في أن العرب ـ رغم جاهليتهم ـ كانوا على مستوى خلقي رفيع ، ويؤمنون بقيم ومبادئ سامية كريمة ، مثل الوفاء بالعهد وإجابة الداعي ، وقرى الضيف ، والجود للسائل ، ونصرة المظلوم ، كانوا يؤمنون بمثل تلك القيم ويدعون إليها ، فلما هداهم الله للإسلام ثبتهم

عليها ، وأمدهم بالمزيد من الصفات العالية والمثل الشريفة بين دينية وأخلاقية .

أما عن صياغة هذه المثل والأخلاقيات شعرا ، فقد اعتاد العرب استغلال طاقات الشعر وإمكاناته فى التهذيب والدعوة لما يريدون من عباداته وقيم ، وإلى ذلك يشير أبو تمام :

ولولا خلال سنها الشعر ما درى
بغاة العلا من أين تؤتى المكارم

وكان ذلك فيما يعرف بشعر الحكمة الذى يصاغ فى أبيات تختم القصيدة أو تتخللها ، ولكنه ليس تقليدا متبعا عند كل الشعراء ، وليس فى كل القصائد ، ومن هنا فلا يمكن اعتباره غرضا قديما جدده الإسلام وأضاف إليه وإنما هو غرض إسلامى محض ابتكره المسلمون ، خاصة وأنهم نظموا قصائد كاملة طويلة ومقطوعات متعددة عنه . ولعل قيام الإسلام - قرآنا وسنة - على الدعوة والموعظة يقول تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾(١) كما يقول سبحانه ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾(٢) .

ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه (٣) « إن الدين النصيحة

---

(١) سورة النحل : آية ١٢٥

(٢) سورة لقمان ، آية ١٣

(٣) لسان العرب ، جـ ٦ صـ ٤٤٣٨

لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم ، كما يقول عليه السلام « الدال على الخير كفاعله ، والله يحب إغاثة اللهفان »(١) .

لعل ذلك كله كان باعثا الشعراء الإسلاميين على الافادة مما فى الشعر من قدرة على التأثير والجاذبية ، والبقاء فى الذهن ، واستغلال ذلك لنشر الدعوة إلى مكارم الأخلاق ، وتهذيب الشخصية ، والسمو بالنفس وترقيق الطبع ، فكثرت النماذج الشعرية فى هذا المجال بين قصائد طوال ، ومقطوعات قصار ، وأبيات متفرقة ، وتتلخص ملامح هذا الغرض فى النقاط التالية :

(١) أغلب نماذجه تندرج تحت ما يعرف بالشعر التعليمى إذ يقوم على الدعوة لمبادىء الدين ، ونشر قيمه وتعاليمه ، كما يهدف إلى إصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق وبث الفضائل .

(٢) يتجسد فى أبيات عبر القصائد الخصصة لأغراض أخرى ، كما يتمثل فى مقطوعات وقصائد خصصت له .

(٣) يستمد معانيه وأفكاره من مبادىء الدين الحنيف ، كطاعة الله ورسوله والتقوى والتوبة عن الذنب ، وبر الوالدين والوفاء بالعهد .. الخ ، وكذلك من القيم الأخلاقية العليا ، مما عرفه العرب قديما ودعا إليه الإسلام أيضا كالكرم والنجدة والإخاء وحق الجار . .

(٤) يتخذ لغة سهلة ، ووسائل فنية بسيطة وقد يكتفى بالنصح المباشر ، وتكثر فيه المفردات والعبارات المقتبسة من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف .

---

(١) فيض القدير : ج ٣ ص ٥٣٧ حديث رقم ٤٢٤٧

ثالثاً : اللغة والأساليب : في مقدمة الملاحظات التي تستلفت الدارس للشعر الإسلامي تأثره بالقرآن الكريم تأثرا لغوياً ، أو أسلوبياً بعد التأثر بالمعاني والأفكار . يتناول الدكتور شوقي ضيف ذلك الأثر في اللغة والأدب عامة فيراه ماثلا في مجالات ثلاث : أولها : جمع العرب على لهجة قريش ، بعد تهذيبها واستكمال ما ينقصها من مفردات . وثانيها : الارتقاء بالعربية إلى منزلة لا تنازعها فيها لغة أخرى ، حين جعلها لغة دين سماوي للبشر كافة ، فوهبها معاني وألفاظا لم تكن تعرفها قبلا ، كما وهبها الخلود الدائم والحياة المتجددة المتألقة بلا ضعف أو خمول أو موت يتهددها . وثالث آثاره : أنه هذب اللغة من الحوشية ومن اللفظ الغريب ، فأقامها في هذا الأسلوب الممتاز من البيان والبلاغة ، ويكفي أن تعود إلى معلقة مثل معلقة لبيد أو إلى شعر قبيلة مثل هذيل وديوانها المطبوع ، لترى كيف أن القرآن اختط أسلوبا جزلا له رونق وطلاوة مع وضوح القصد والوصول إلى الغرض من أقرب مسالكه ، وهو أسلوب ليس فيه زوائد ولا فضول ، فاللفظ على قدر المعنى وكأنما رسم له رسما ، وهو لفظ لا يرتفع عن الأفهام ولا عن القلوب ، بل يقرب منها حتى يلمس الشغاف »[1] وهذا الأسلوب الرائع الجديد أسر العرب بسحره ، وملك أفئدتهم ببهائه وجماله فنسجوا على منواله ، وترسموا آثاره ، واهتدوا بهديه ، يصوغون آثارهم الأدبية مهتدين بديباجته الكريمة ، وحسن مخارج الحروف

(١) العصر الإسلامي : د. شوقي ضيف ص ٣٣ ، ٣٤ .

فيه ، ودقة الكلمات فى موضعها من العبارات بحيث تحيط بمعناها ، وبحيث تجلى عن مغزاها مع الرصانة والطلاوة »[1] :

ويعقد الأستاذ ظافر القاسمى موازنة بين الشعر الجاهلى ممثلا فى أحد نماذجه الشهيرة — معلقة امرىء القيس — وبين الشعر الاسلامى مبينا الفارق الكبير ، مشيراً إلى كلمات بارزة فى الأبيات التى أوردها ، يقول « كان أسلوب الشعر الجاهلى متسقا مع ما فى حياة الصحراء من شظف ، ومع ما فى طبيعتها من جفوة ، ومع ما فى تقاليدها من قسوة : ضخامة فى الألفاظ ، وغرابة فى انتقائها ، وصعوبة فى نطقها ، وتنافر فى تركيب حروفها ، عسيرة عسر الحياة فيها ، جزلة فى تركيبها[2] » ويعطى الدارس أمثلة من معلقة امرىء القيس على ما يقول من تنافر حروف الكلمات وصعوبة نطقها :

وفرع يزين المتن أسود فاحم
أثيث كقنو النخلة المتعثكل
غدائره مستشزرات إلى العلا
تضل العقاص فى مثنى ومرسل

* * * *

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى
بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل

---

(١) العصر الاسلامى : د. شوقى ضيف ص٣٣ ، ٣٤ .
(٢) نظرات فى الشعر الاسلامى : ظافر القاسمى ص ١١

* * * *

سفينة بيضاء غير مفاضـــة

ترائبها مصقولة كالسجنجل

* * * *

فأضحى يسح الماء سول كثيفة

يكب على الأذقان دوح الكهنبل

وبعد استعراض أمثلة متنوعة من الشعر الاسلامى يقول : «وأما الشعر الاسلامى فقد تحرر من صفات أسلوب الشعر الجاهلى تحرراً ظاهراً ، وأصبح له طابع جديد يتسم بالوضوح والسهولة مع المحافظة على جزالة التركيب»(١) ويقول الدارس فى موضع آخر : تجد أن الألفاظ قد تغير استعمالها ، وتجددت موسيقاها ، فلست ترى «العقنقل والمتعشكل والسجنجل والكهنبل» وأمثالها ، لا رويا للقافية ولا من كلم القصيد ، كذلك فإن تركيب الألفاظ وضم الكلمة إلى أختها ، الذى هو أصل البلاغة فى رأى الجاحظ — معلم العقل والأدب — قد طرأ عليه تطور ظاهر»(٢) وهو يرجع هذا التطور الأسلوبى فى الشعر الاسلامى إلى أثر القرآن الكريم الذى فتن العرب ببلاغته وسحرهم بفصاحته .

(٢،١) نظرات فى الشعر الإسلامى : ظافر القاسمى ص ١٩ .

وواضح من رأى الدارسين الفاضلين أن التأثير اللغوى القرآنى فى الأدب - شعرا ونثرا - تم فى مجالين هما :

إثراء المعجم العربى : بإضافة مفردات جديدة تدور حول الإسلام بجوانبه المتعددة : اعتقادا وعبادات ، ومعاملات ، دنيا وآخرة . . . الخ .

تحول مقياس البلاغة والبيان من الغرابة والتعقيد فى ندرة الكلمات وصعوبتها ، وفى فخامة العبارات وتعاظلها ، تحوله إلى السلاسة والسهولة والرقة والبساطة مع رقة التعبير وقوة البيان، وذلك بحسن اختيار المفردات والاهتداء بأسلوب القرآن فى جمال التراكيب وعذوبتها .

ومن أمثلة الألفاظ القرآنية أو الإسلامية عامة ، التى مرت بنا فيما عرضنا من شعر ، وكذا الجمل أو التركيب :

مجموعة تدور حول أسماء الله سبحانه وصفاته مثل : أمر الله ، ذو العرش ، رب المشرق ، حول ، نصر الله ، رب الناس ، عباد الله معاذ الله ، إله الحق، إله الخلق ، الله راء وسامع ، غفور لذنب المرء ، الله يحكم حكمه ، الله يرزقنا ، لك الخلق والنعماء ، إياك نستهدى وإياك نعبد ، توكلنا على الرحمن ، ثواب الله ويعيننا الله العزيز ، الله نحمد ، أتوب إلى الله الرحيم .

مجموعة تتصل بالقرآن الكريم : كالوحى ، كتاب جاء بالحق ، كتاب منزل ، كتاب الله .

مجموعة ترتبط بالرسول عليه السلام : كالنبي والرسول ومحمد ومحمود ، مباركا براحيفا ، سنة . نور أضاء لنا ، نور يستضاء به ، راحم مرحوم ، خاتم ، رسول الرحمة ، للنبوة خاتم ، النبي المهتدى أمين الله أنذرنا نارا وبشر جنة ، سراجا منيرا وهاديا ، نبي الهدى نطيع أمر نبينا ، الباذلين نفوسهم لنبيهم ، يحرم شفاعته ، فترة من الرسل ، إذ قال فيها لخمس المؤذن أشهد ، خير البرية ، وضم الإله اسم النبي إلى اسمه .

مجموعة متنوعة : إسلام ، مسلم ، مسلمون ، جهاد يجاهد ، مجاهد ، هجرة ، مهاجرون ، أنصار ، مرحد كفر ، كافر ، كفور ، مشرك ، أصنام ، أوثان ، الشرك ، الكفار ، الظلام بمعنى الضلال ، البر ، نسك ، ميكال ، الصالحون ، المؤمنون ، جنان ، نعيم ، أشهد ، شهادة عقله ، أتوب ، اغفر ، زلفى ، يوم الحساب ، نسج داود إذا بلغ النقر ، اعتمرنا ، الصبر للمتوكلينا ، رجلا يصلي ، بشرى الحياة ، جنان الفردوس ، روح القدس .

ولا شك أن هناك مئات أو آلاف العبارات والكلمات الإسلامية في أشعار لم نستعرضها ، لأننا نمثل فحسب ولا نحصي .

بقي الوجه الآخر للتأثير الإسلامي في الشعر الغربي ، وهو ميل الأسلوب للرقة والسلاسة والعذوبة ، ولا نعني هذه السلاسة ضعفا في اللغة أو هبوطا بمستوى الأسلوب عن الجزالة والمتانة النسجية كما تصور بعض النقاد ، ولكن

التبسط والجمال وهو مايمكن تحولا بلاغيا هاما، سوف تتضح قسماته حين نتقدم أكثر فى عهد بنى أمية ، فسوف نلتقى بالغزل العذرى الشفيف ، يصاغ فى أسلوب غاية فى الرقة والجمال والموسيقية ، متخيرا مفرداته بعناية فائقة ، مبتعداً عن التقعر البلاغى ، وحشد الألفاظ المعجمية الضخمة ، متجهنيا للغرابة والوحشية .

وقد رأى الدكتور عبد القادر القط فى ظاهرة البساطة والرقة نوعا من ضعف المستوى الشعرى خاصة فيما يتصل بالاسلام ومبادئه ، ولكنه يختفى إذا تناول الشاعر فى نفس القصيدة أغراضاً أخرى ، ويمثل لذلك بعينية حسان بن ثابت فيقدم أبياته التى يهدد فيها المشركين :

عدمنا خيلنا إن لم تروها
تثير النقع ، موعدها كداء
يبارين الأعنة مصعدات
على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات
تلطمهن بالخمر النساء
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا
وكان الفتح وانكشف الغطاء

والا فاصبروا لجـــلاد يوم
يعين الله فيه من يشـاء

ويعقب الدكتور على تلك الأبيات قائلا : والشاعر في هذه الأبيات ـــ ولم يصل بعد إلى موضوعه الإسلامى ـــ يمضى على طريقته فى المقدمة محتفظا بسمت شعره الجاهلية فى لغته وأسلوبه ، فإذا انتهى إلى الحديث عن المسلمين تغيرت لغته وشاع فيها كثير من الألفاظ الإسلامية ، وخف ما فى أسلوبه من رصانة وتماسك ، وأصبح شعره أقرب إلى نظم المعانى الإسلامية منه إلى التصوير الشعرى :

وجبريل أمين الله فينا
وروح القدس ليس له كفاء
وقال الله قد أرسلت عبدا
يقول الحق إن نفع البلاء
شهدت به فقوموا صدقوه
فقلتم لا نقوم ولا نشاء
وقال الله قد يسرت جندا
هم الأنصار عرضتها اللقاء

والحق أن هذا المنهج يطرد فى أغلب شعر حسان الاسلامى ، فتأرجح شعره بين الأسلوب الجاهلى فى صوره ولغته ومعانيه ، وأسلوب لا يمكن أن نسميه إسلاميا

بالمعنى الصحيح ، وإنما يستخدم الشاعر فيه بعض الألفاظ القرآنية والمعانى الدينية ويتحلل فيه من « المعجم الشعرى الجاهلى » مؤثراً « البساطة » التى قد تنتهى أحياناً إلى ضعف النظم والركاكة » (١)

ويرجع الناقد الكبير هذا الضعف إلى أن الشعراء فى تلك الآونة عاشوا فترة انتقال بين عصر وعصر ، حين فاجأتهم تجارب جديدة ، ثم لا يملكون رصيدا من التراث الشعرى يعينهم على تصويرها ولم يتح لهم الوقت وتلاحق الأحداث أن يهتدوا — بعد — إلى أسلوب فنى ملائم لاستيعاب تلك التجارب والتعبير عنها .

وأنا لا أتفق مع الناقد الكبير فى اعتبار الأبيات التى قدمها لحسان أولا غير اسلامية ، فغرضها — أو فكرتها الأساسية — اسلامية إذ أنها تهديد للمشركين بما أعده لهم المسلمون ثم هى تحفل بالألفاظ الاسلامية ، وتبتعد لغتها عن الغرابة والتعقيد وتتسم بالوضوح والسلاسة .

وكذا فانى أتحفظ على وصم أسلوب حسان بالضعف الذى يصل إلى النظم الركيك ، خاصة فى هزيته تلك ، فهى من روائع شعره الاسلامى وقد أشاد بها كثير من الدارسين ، كما لاقت نجاحا وانتشارا فى عصرها ، ثم إن وجود بيتين أو ثلاثة فى الأبيات الأربعة التى استشهد بها الناقد الكبير أقل مستوى وأرق نسجا ، لا ينقص من قيمة القصيدة ، ولا يسم الشاعر بالضعف والركاكة ، فالقصيدة طويلة متعددة الأغراض

---

(١) فى الشعر الاسلامى والاموى : ص ٤٦

كثيرة الاستطراد ، مما يوقع الشاعر فى بعض الهنات ونقاط الضعف ، وذلك يحدث لكثير من كبار الشعراء حتى الجاهليين .

لكن دفاعى — عن حسان وهزيته ، لا يمنع وجود شىء من الضعف وهبوط المستوى الفنى فى نماذج قليلة من الشعر الاسلامى — خاصة ما يعرف بشعر الفتوح .

وهذا الضعف يمكن تعليله بما ذكره الأستاذ الناقد عن فترة الانتقال وجدة التجارب ، وكذلك صدور تلك النماذج عن شعراء غير محترفين ولا معروفين بالشعر ، وإنما وضعتهم الأحداث فى خضم التجارب العنيفة التى هزت وجدانهم ، كمعارك الفتوح أو الاغتراب عن الوطن أو فقد الاعزاء ، فنظموا الشعر دون خبرة ومراس ، ودون رصيد من التراث الشعرى الجاهلى ولا حصيلة من الكلمات والعبارات والصور التى يختزنها الشاعر المحترف ، ويغترف منها كلما هم بالنظم .

والأقرب للصحة أن نرجع السهولة والتبسط فى قليل من أمثلة الشعر الاسلامى إلى اتخاذه وسيلة دعائية ، ثم إلى حرص الشعراء المسلمين على مواكبة الأحداث ، وأخيرا إلى استعماله سجلا وتأريخا للوقائع والانتصارات .

فاتخاذه وسيلة دعائية يتطلب أن يكون قريبا من جميع المستويات الثقافية للجمهور المتلقى ، كما يتطلب أن يكون سريع الفهم ، وبالتالى سريع التأثير ، وكل ذلك يحوج الشاعر إلى استعمال لغة سهلة متداولة

إلى البعد عن الإغراب والتعقيد ، بل وحتى عن الوسائل الفنية التى تحتاج من متلقيها إلى تأمل وإعمال فكر وثقافة خاصة .

أما حرص الشعراء على مواكبة الأحداث فيدفعهم إلى كثرة النظم والاسراع إليه بمجرد وقوع الحدث كى لا يتهم بالتخلف عن المشاركة وعدم الاهتمام وذلك الاسراع يحرمه من التروى واختيار الفكرة ، ومعايشة التجربة واستبطان الشعور .

وأخيراً فإن استعمال الشعر سجلاً للوقائع ، وتأريخا للانتصارات يميل به إلى الخطابية والمباشرة وأسلوب السرد ، ويزحمه بالأسماء والأحداث والأيام والتواريخ والأماكن ، وكل ذلك ينأى به عن لغة الشعر وفنيته . ثم يشير الأستاذ الدكتور عبدالقادر إلى ظاهرة لغوية أخرى لدى بعض الشعراء الاسلاميين ، على أن الظاهرة اللغوية التى لاحظناها عندالشعراء السابقين ما تزال قائمة فى قصيدة أبى ذؤيب إذ ترق ألفاظه ويسلس أسلوبه وتظهر ذاتيته فى المطلع النفسى ، ويعود إلى الغريب والجزالة والموضوعية فى لوحاته الوصفية(١) . ثم يرجعها الناقد الكبير إلى ضعف التأثير الاسلامى على الشاعر ، فهو يغترف من القديم فى الموضوعات التقليدية ، ثم يرق ويعذب فى المواقف النفسية الذاتية ، وهذا طبيعى فى الفترة الباكرة من العصر

---

(١) فى الشعر الاسلامى والأموى : ص ٥٤ .

الاسلامى فلم يكن الشعر الجديد قد كون تراثه بعد ، لكننا مع تقدم الزمن سوف نلاحظ التغير والتطور ، والحق أن من أهم صور(١) التطور فى الشعر العربى حينذاك ، تلك اللغه الاسلامية الحضرية بأساليبها وألفاظها ، بعد أن مرت بمراحل من التطور التدريجى بدأت فى تلك المرحلة التى ندرسها ، ثم اتضحت معالمها فى العصر الأموى(٢)

وهناك ظاهرة لغوية أخرى بدأت إرهاصاتها فى أول العصر الاسلامى ، ثم شاعت بعد ذلك وخاصة عند الشعراء الذاتيين أو العاطفيين فأصبحت ظاهرة مشتركة بين كثير منهم ، وقد أشار الدكتور القط إليها فى قصيدة أبى ذؤيب وفى قصيدة أخرى منسوبة إلى مضرس بن ربعى ، تلك هى ظاهرة تكرار كلمة معينة فى نفس البيت أو فى بيتين متتاليين لعدة أهداف .

١ — تحقيق المفارقة والتقابل بين أمرين أو وجهين :

يقول أبو ذؤيب :

سبقوا هواى ، وأعنقوا لهواهم

فتخرموا ، ولكل جنب مصرع

---

(١) اضفت كلمه صور لأن النص بدونها لا يستقيم .

(٢) المرجع السابق ص ٢٩ .

فقد أراد بكلمتى هواى ، هواهم ، إحداث مفارقة وتقابل بين ما كان يرجوه من موته قبل أبنائه ، وبين الواقع المر حين سبقوه بموت جماعى .

ويقول عباس بن مرداس فى مدح النبى ﷺ :

ونورت بالبرهان أمرا مدمسا

وأطفأت بالبرهان نارا مضرما

فتكرار البرهان يؤدى إلى تقابل بين إنارة ظلام الجهل والضلال وإطفاء نار الشرك والكفر . ويقول حسان بن ثابت :

إن كان فى الناس سباقون قبلهم

فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

فسبق ، سبقهم أظهرتا الفارق بين نوعين من السبق أحدهما للمسلمين الذين يفخر بهم حسان والثانى لغيرهم .

(٢) تكرار اللفظ لتحقيق إيقاع يؤكد حدة الإحساس عند المتلقى ، كما يشير لديه توقعا للقافية :

يقول ربيعة بن مقروم الضبى :

ودعوا نزال ، فكنت أول نازل

وعلام أركب إذا لم أنزل

فكلمة نازل في الشطر الأول هيأت القارىء لتوقع القافية ، كما أن الكلمات الثلاث : نازل ، نزال ، أنزل أكدت إحساس الملتقى بالإقدام والشجاعة التي تملأ نفس الشاعر .

يقول حسان بن ثابت مفتخرا بقومه :

قومي الذين هم آووا نبيهم
وصدّقوه وأهل الأرض كفار
إلا خصائص أقوام هم سلف
للصالحين ، مع الأنصار أنصار
فأنزلوه بدار لا يخاف بها
من كان جارهم ، داراً هي الدار

في البيت الثاني تدفعنا كلمة الأنصار إلى توقع القافية كما تؤكد الإحساس بعظمة الممدوحين .

وكذلك دار في البيت الثالث تجعلنا نتوقع القافية وتزيد شعورنا بما لقيه الرسول الكريم من ترحيب وحفاوة وأنصر في المدينة بين الأنصار .

ويقول أبو ذؤيب في رثائه لبنيه :

أم ما لجنبك لا يلائم مضجعا
إلا أقض عليك ذاك المضجع

فضمها الأولى جعلت القارىء يتوقعها رويا ، كما أحدثت إيقاعا بين العروض والقافية يقوى حدة إحساس الشاعر بالأرق والحزن الممض

٣ ـ الربط بين بيتين بما يوضح ويقوى الاحساس الذى عنى الشاعر بنقله ، ويوحد بين أجزاء الصورة :

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم
فإذا المنية أقبلت ، لا تدفع
ولإذا المنية أنشبت أظفارها
ألفيت كل تميمة لا تنفع

لقد وزع أبوذؤيب فكرته وصورته على البيتين ، وكرر لفظ المنية ليربط بينهما ويلم شمل أجزاء الصورة .

وحسان بن ثابت حين قال فى هجريته :

أبلغ أبا سفيان أن محمدا
هو الفصل ذو الأفنان ، لا الواحد الفرد
وأبلغ أباسفيان عنى رسالة
فما لك من إصدار عزم ، ولا ورد

فتكرار « أبا سفيان » ربطت بين البيتين ، وجمعت أجزاء صورتى الممدوح : النبى — والمهجو أبوسفيان —

أما كعب بن زهير فى « بانت سعاد » فيقول :

أمست سعاد بأرض لا يبلغها

الا العتاق النجيبات المراسيل

ولن يبلغها إلا عذافرة

فيها على الأين إرقال وتبغيل

فقد ربط بين البيتين كما أبعاد التعبير عن حسه ببعد الحبيبة ، وطول المسافة بينهما حين كرر يبلغها .

ويوسعنا الآن استخلاص ماحدث في لغة وأساليب الشعر الاسلامي من تطور خلال العهد النبوى والراشدى :

١ ـ التأثر بالقرآن الكريم في مجالين : اثراء المعجم العربي بمفردات جديدة ترتبط بالإسلام في مختلف جوانبه وكذلك في تحول مقياس البلاغة إلى السهولة والرقة .

٢ ـ ميل الشعر الاسلامي إلى الرقة والبساطة يرجع إلى أن الفترة تعد انتقالا بين عصرين ، ووجود تجارب جديدة لم تتأصل طرق التعبير الفنى عنها ، ولأن الشعر وسيلة دعائية وسجلا للوقائع والتاريخ ، والشعراء يتابعون الأحداث بإنتاج سريع فلا يجدون فرصة للتنقيح والتهذيب .

٣ ـ كثير من الشعراء غير محترفين ، فلا يملكون رصيدا فنيا ولا خبرة وممارسة .

٤ ـ استغلال ظاهرة التكرار اللفظى لعدة أهداف .

(رابعا) البناء الفنى : يتفق الدارسون للشعر فى باكورة العهد الإسلامى على أن التغيير الجذرى الخطير الذى أحدثه الإسلام فى شتى جوانب الحياة ، كان بحاجة إلى فترة زمنية طويلة لكى يستوعبه الشعراء ويتمثلوه ويعايشوه وجدانيا وذهنيا ، ثم يمتدوا - بعد تجارب ومحاولات إبداعية - إلى وسائل فنيه حديثة ، ولغة شعرية موحية معبرة ، وصور مبتكرة مناسبة ، ويمتزج كل هذا فى نسيج شعرى محكم ، يعبر عن الحدث الكبير ويتلاءم مع أهميته وقوته .

وعلى ذلك . . فضعف المستوى الفنى لشعر تلك الفترة - لو سلمنا بوجوده - لا يرجع إلى التأثير السلبى للإسلام على الشعر ، وإنما يعود إلى قصر الفترة - موضوع الحكم - وبالتالى عدم توافر الوقت الكافى للتجويد والابداع الفنى المتقن .

وبالإضافة إلى هذا التحفظ ، يجب أيضا قبل النظر فى البناء الفنى للشعر خلال العهد النبوى والراشدى ، أن نضع فى الاعتبار أمرين مؤثرين :

(١) الكثرة الهائلة فى نماذج الشعر ، وخاصة ما صيغ فى معارك الفتوح ، إن الإنسان ليدهش حقا أمام هذه الكثرة من الشعراء ، حتى ليخيل إليه أن الفاتحين جميعا قد استحالوا شعراء ،[1] وجعل هؤلاء الشعراء ليسوا معروفين ولا محترفين ، وإنما هم من عامة المجاهدين ،

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين : صـ ٣٠٥

حفزهم الموقف وهزتهم التجارب ، وأثارت مشاعرهم ظروف الجهاد والغربة والشوق، فنظموا الشعر دون أن يتجهزوا بأدواته أو يتمرسوا بصناعته وروايته وكتابته ، وفى هذا الخضم الهائل من النماذج البسيطة السريعة لشعراء مغمورين غير مجودين، تغرق وتضيع نماذج أخرى متميزة ورائعة للشعراء الممتازين ، ويكون حكم الدارسين على الشعر الإسلامى عامة بالضعف الراكة .

(٢) حرص الشعراء على متابعة الأحداث المتلاحقة فى المجتمع الإسلامى ، وكأنما أصبح الشعر سلاحا آخر من أسلحة القتال ، يعتمد عليه المقاتلون كما يعتمدون على سيوفهم ورماحهم وسهامهم .. وفى أعقاب كل يوم من أيام القتال ، يقف الشعراء يرثون شهداءهم ، ويستلهمونهم الحماسة والتضحية ، كما يتحدثون عن مصارع أعدائهم ، ويفتخرون بأنهم أوردوهم موارد الموت والهلاك ، فى سبيل نصرة القضية التى يقاتلون من أجلها (١) كل ذلك عدا الأغراض والقضايا الأخرى.

وبعد هذين الاعتبارين يمكننا إلقاء الضوء على جانب البناء الفنى لنرى ما استبقاه الاسلاميون من تراث جاهلى وما أضافوه جديدا إلى نسق القصيدة العربية وتصميمها .

(١) المقدمات الغزلية والخمرية فى القصيدة : توزعت مقدمات

(١) تاريخ الشعر العربى : د . يوسف خليف ص ٢٩

القصيدة الجاهلية بين الغزل ممزوجا بالخربات أو متداخلا مع الاطلال ، وقد ظل هذا التقليد فى سار يا الشعر الاسلامى إلى زمن متأخر ، بل امتد عند البعض إلى العصر الحديث ـ مثل أحمد شوقى ـ أحيانا .

وتقبل النقاد بداية الغزل الذى يختلط بالأطلال أو يتفرد ، ولكنهم وقفوا موقف الشك والتردد من المقدمات الغزلية الخمرية ، ويشك بعض الدارسين فى هذا الجزء الأول من القصيدة ويرون أن الشاعر لابد أن يكون قد نظمه فى الجاهلية ، ثم عاد يأتم القصيدة بعد الاسلام . ذلك لأنهم ينكرون أن يتحدث شاعر إسلامى ، وثيق الصلة بالدعوة والرسول ، مثل هذا الحديث الصريح عن الخمر ،(١) بذلك يعقب الدكتور عبد القادر على مطالع همزية حسان بن ثابت ، ثم يشير إلى مطالع أخرى لحسان وشعراء غيره ، يختلط فيها الغزل باشارات للخمر ، ولا يرى فى ذلك غرابة تدعو إلى الشك فيما إذا كانت تلك المقدمات نظمت أيام الجاهلية ، ثم أكمل الشاعر القصيدة بعد الاسلام ، ويرى كذلك أن المجتمع الاسلامى لم يكن متزمتا مع الشعراء ، بل كان يعد أبيات الغزل والخمر تقليدا فنيا ليس الا ، ولا يعبر بالضرورة عن سلوك عملى أو تحلل أخلاقى . « ألم ترى أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون »(٢) .

---

(١) فى الشعر الاسلامى والأموى ص ٤٣

(٢) سورة الشعراء : آية ٢٢٤

ويمكن أن نضيف فى تعليل تلك الظاهرة — ذكر الخمر — أن تحريم الخمر وشربها تم تدريجيا ، وعلى مراحل ، فلعل تلك الأبيات قد نظمت قبل أن يحدث التحريم الكامل ، كذا فإن الشاعر يتطرق إلى الخمر غالبا لكى يصف رضاب المحبوبة ، فهو لا يفرد للراح حديثاً ، ولا يصفها لذاتها ولا يفاخر بشربها أو يصف مجالسها ، إنما هو تشبيه فحسب ، أو صورة فنية ورثها عن السابقين .

وخلاصة الأمر أن مطلع القصيدة الاسلامية ظل محافظا على النهج الجاهلى ، فهو :

(١) غزل خالص (٢) يتداخل فيه الغزل بالخمر

(٣) يمزج بين الغزل وبكاء الأطلال .

(٤) يدخل فى العرض الأصلى للقصيدة دون مقدمات .

(٢) وحدة الدلالة ووحدة التجربة فى القصيدة : يشير الدكتور « عبد القادر » إلى إرهاصات بتطور هام فى بناء القصيدة العربية بدأت بواكيره فى هذا العصر ، ثم تزايد حتى ميز كثيراً من القصائد فى العهد الأموى ، وذلك التطور يتبدى فى كون القصيدة ذات دلالة واحدة ، وتصب فى بؤرة شعورية واحدة ، حتى وإن تعددت موضوعاتها .

ويمثل الأستاذ الدكتور بقصيدة أبى ذؤيب فى رثاء أولاده ، حيث

صممها فى بناء محكم يتكون من مقدمة تعرض ما ساءة الشاعر فى فقد بنيه ، ثم يرسم ثلاث لوحات لمقتل حمار وحشى وثور وفارس شجاع ، بادئا كل لوحة بشطر لا يتغير :

« والدهر لا يبقى على حدثانه » .

فيربط بهذا التكرار بين المقدمة واللوحات الثلاث ، كما يعطى لقصيدته دلالة واحدة هى أن الفناء نهاية كل حى .

وفى تصورى أن هذا التطور موجود فى قصائد أخرى غير قصيدة أبى ذؤيب ، فكثير من قصائد حسان قد خلصت لغرض واحد ، كالفخر أو المدح أو الرثاء ، وكثير من قصائد كعب بن مالك اقتصرت على وصف معركة من المعارك بين المسلمين وأهل الشرك ، وهناك شعراء مختلفين خصصوا قصائدهم لوصف إحدى معارك الفتوح ، أو التعريف ببلد جديد رحل اليه المجاهدون ، أو رثاء الشهداء فى أحد المواقع .

ومن المرجح أن وجود ذلك التقليد الشعرى الذى عرف مؤخرا بعمود الشعر ، وبدئ البدء بالغزل أو الأطلال ، ووصف الناقة والصحراء ، ثم الغرض الأصلى ، فخاتمة من أبيات الحكمة ، من المرجح أن وجود ذلك التقليد فى الجاهلية كان وراء توزع القصيدة ، وعدم اتساقها فى تجربة شعورية واحدة ، وبعض القصائد الجاهلية — مثل ما قيل فى الرثاء — قد ورثت من التشتت والانقسام ، وخلصت

لفكرة واحدة ، وتمتعت بوحدة الشعور والتجربة ، لأنها لم تخضع لذلك التقليد .

فلما جاء الاسلام ، وقلت سيطرة التقاليد الشعرية الجاهلية وعاش الشعراء تجارب شعورية حارة عنيفة ، تحررت بالتالى قصائدهم الاسلامية من تعدد الأغراض ، فتوافرت لها وحـــدة الدلالة ووحدة التجربة .

٣ ـــ الافادة من قصص القرآن عن الأمم السابقه : لا ريب أن القرآن الكريم نبع ثر لا يغيض يستمد منه الشعر معانياً وأفكارا وأمثلة ورموزا ، بعد أن اهتدى بهديه لغة وأسلوبا ، والشيء الجديد يبدأ دائما بمجرد لمحات وإرهاصات ، لكنه يسرى وينتشر بعد ذلك ليكون ملامح وقسمات ، ذلك ما نجده فى مجال الافادة من قصص القرآن إنها إشارت موجزة وسريعة ، بمثابة القبسات المنيرة يقول عبدالله بن الحارث بن عدى :

وتلك قريش تجحد الله حقـــه
كما جحدت عاد ومدين والحجر

وهو يشير إلى الأمم السابقة حين كذبت رسلها وكفرت بربها مستفيداً من قوله تعالى ﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم

القيامة ، ألا إن عاداً كفروا ربهم ، ألا بعداً لعاد قوم هود ﴾[1] ، وكذلك من قوله جل شأنه ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾[2] .

وأخيرا فإن الشاعر يستوحى قول الله عز وجل ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ﴾[3] .

أما شداد بن عارض الجشمي فى تخويفه أهل الطائف وتحذيرهم من قتال الرسول ، إن هم تمسكوا بأصنام لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا :

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها

وكيف نصركم من ليس ينتصر

تلك التى حرقت بالنار فاشتعلت

ولم يقاتل لدى أحجارها هدر

إن كبير الآلهة « هدر » لم يستطع الدفاع عنها حين أحرقت تماماً كما فشل كبير الأصنام قديما فى الدفاع عنها عندما حطمها ابراهيم ﴿ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا

---

(١) سورة هود : آية ٥٩/٦٠ .

(٢) سورة العنكبوت : آية ٣٥/٣٦ .

(٣) سورة الحجر : آية ٨٠ .

فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ (١).

وليس من شك في أن هناك أمثلة عديدة لمن أراد استقصاء الظاهرة ، فقول عبدالله بن رواحة :

فثبت الله ما آتـــاك من حسن

تثبيت موسى ، ونصر كالذى نصروا

فيه استيحاء لآيات كثيرة تحكى قصة موسى عليه السلام وتأييد الله له ونصره إياه على فرعون وجنده ، ومنها قوله تعالى ﴿ وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون ، فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليـــم وهو مليم ﴾(٢)

وفى قول كعب بن مالك(٣) :

وأنـــ تك نمل البر بالوهم كلمت

سليمان ، ذا الملك الذى ليس بالعمى

فهـــذا نبى الله أحمـــد سبحت

صغار الحصى فى كفه بالـــترنم

إفادة واضحة من سورة النمل وقصة النبى سليمان مثل قوله جل شأنه:

---

(١) سورة الأنبياء : آية ٦٢/٦٣ .

(٢) سورة الذاريات : آية ٣٨/٤٠ .

(٣) يشكك د. عبدالقادر القط فى نسبة هذه الأبيات لكعب ص٣٢ .

﴿ حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ (١).

وأمثال ذلك كثير ، وحقيقة أنها إشارات موجزة ، لم يحسن الشاعر فيها استغلال المنهل القرآني الفياض ، ولكنها البداية التي تشوبها جدة المحاولة ، وتنتقص منها سذاجة الريادة ، وهي على أي حال لمحات دالة لما تركه القرآن الكريم من تأثير — لغة وأفكارا — وعلى استجابة الشعراء الإسلاميين لما يتطلبه التغيير الجذري من تجديد في أسلوب بناء القصيدة العربية .

٤ — اتخاذ الشاعر الحمامة أو أحد مظاهر الطبيعة رمزاً : الشعر إيحاء وملمح ، رمز وإشارة ، وكلما ابتعد عن الخطابية والمباشرة ، كلما تجنب التصريح والإيضاح ، اقترب أكثر من الشاعرية والحدس ، واحتوى عنصر الأصالة والتميز ، والإنسان دائما بحاجة إلى التأسي ، ميال للبحث عن شبيه وند ، يثير شجوه ، ويفض له همه ويناجيه ، يقارن بين حاله وحاله ، ويوازن بين آلامه وأوجاع نده ، ويستخلص العزاء أو يثبت قوة احتماله وصبره ، والشاعر أكثر الناس حاجة إلى ذلك التأسي والسلوى ، فهو الأشد إحساسا والأرهف شعورا والأرق وجدانا والأوجع قلبا .

وقد كانت الطبيعة دائما أما حنونا ، يجد الشاعر فيها تعاطفا

(١) سورة النمل : آية ١٨ .

ومصادقة، ويتخذ من ظواهرها ـ حية وجامدة مستأنسة أومستوحشة يتخذ منها أشباهاً ونظائر ويستعملها رموزاً وموضوعات ، يخلع عليها ما يريد قوله عن نفسه ، ويتوسل بها إلى بيان حاله والتعبير عن شكواه، لقد هام امرؤ القيس فى الفلاة المفزعة بلا أنيس ولا صديق فالتقى بالذئب الجائع ، يشبهه فى الفقر والعوز[1] :

فقلت له ـــ لما عوى ـــ إن شأننا

قليل الغنى ، إن كنت لما تمول

كلانا ـــ إذا ما نال شيئا ـــ أفاته

ومن يحترث حرثى وحرثك ، يهزل

وعنترة ، حين مر على أطلال الديار بعد رحيل المحبوبة ، هيجت دموعه عبرات الحمامة (٢) :

أفمن يبكاء حمـــامة فى أيـــكة

ذرفت دموعك فوق ظهر المحمل

كالدر أو فضض الجمـــان تقطعت

منه عقائد سلـــكه ، لم يوصـــل

وفى قصيدة أخرى يحاور الطير مقارنا بين حاليهما فيجد نفسه أكبر همّا وأحزن قلبا(٣) :

---

(١) الشعر الجاهلى بين القبلية والذاتية : د. اخلاص نخرى ص٩٧ .
(٢) موسوعة الشعر العربى : مطاع صفدى : ص٤٥٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٥٥٨

كيف السلو ، وما سمعت حمائما

يندبن إلا كنت أول منشد

وسألت طير الدوح : كم مثلي شجا

بأنينه وحنينه المتردد ؟

ناديته ، ومدامعي منهلة

أين الخلي من الشجي المكمد

لو كنت مثلي ، ما لبثت سلاوة

وهتفت في غصن النقا المتأود

ويتأسى النابغة بالحمامة أيضا(١) :

أسائلها ، وقد سفحت دموعي

كأن مفيضهن غروب شن

بسكاء حمامة تدعو هديلا

مفجعة ، على فنن تغني

لكن تلك الاشارات الموجزة المجملة في الشعر الجاهلي تنمو مع تطور الثقافة ، وارتقاء الفن الشعري ، فنجدها في العصر الاسلامي تتحول إلى صورة شعرية رائعة ، يتخذ الشاعر فيها من الحمامة رمزاً

---

(١) في الشعر الاسلامي والأموي : د. عبدالقادر القط ص٦٣ .

أو معادلا موضوعيا ويعكف على تفصيل المقارنة بينهما من جوانب متعددة ليخلص فى النهاية إلى تماثلهما فى الألم . يقول حميد بن ثور الهلالى ، وهو شاعر مخضرم أدرك عمر بن الخطاب(١) :

وما هـــاج هذا الشوق إلا حمامة
دعت ساق حر ، ترحة وترنمـــا
تبـــكى على فرخ لها ، ثم تغتـــدى
مولهـــة تبغى له الدهر مطعمـــا
تؤمل منه مؤنســـا لانفرادهـــا
وتبـــكى عليه إن زقا أو ترنمـــا
عجبت لها ، أنى يكون غناؤها
فصيحـــا ، ولم تفغر بمنطقهـــا فما
فلم أر محـــزونا له مثل صوتهـــا
ولا عربيا شاقه صوت أعجما
كمثلى إذا غنيته ، ولكن صوتها
له عولة ، لو يفهم العود أرزما

(١) المرجع السابق : ص ٦٣ ، ساق حر : ذكر الحمام القمرى أعجما : لا يفصح ، ويقصد الحمامة ، العود : الجمل المسن ، أرزما : حن وتشوق .

ويتكرر الرمز فى أبيات وقصائد أخرى ليصبح أداة فنية جديدة يستعين بها الشاعر الإسلامى على مزيد من التأثير والإيحاء، ويبتعد بها عن الخطابية والمباشرة ، وهو يتنوع فى رموزه مستلهما كل مظاهر الطبيعة، يقول ابن الغريزة النهشلى أثناء معركة جوزجان ببلاد فارس(١) :

وما بى أن أكون جزعت ، إلا
حنين القلب البرق اليمانى

والبرق أيضا يهيج الذكرى والحنين عند شاعر آخر أحس غربة الروح بعد غربة البدن حين خرج غازيا بعيدا عن نجد ، ليس البرق وحده الذى شاقه من الوطن ، بل أقفار وجرة ، وريح الخزامى ، وريا حبيبة القلب، كلها رموز للوطن تثير الشاعر وتحرك شجونه ،ويتحدث عنها فيصور من خلال الحديث أشواقه وشجونه (٢) :

أتبكى على نجد وريا وان ترى
بعينيك ريا ما حييت ولا نجدا
ولا مشرفا ما عشت أقفار وجرة
ولا واطئا من ترجن ثرى جعدا
ولا واجدا ريح الخزامى تسوقها
رياح الصبا تعلو دكادك أو وهدا

(١) نظرات فى الشعر الإسلامى والأموى : ص ٦٣
(٢) الأدب فى عصر النبوة والراشدين : ص ٣١٢

ألا أيها البرق الذى بات يرتقى

ويجلو نجى الظلماء ذكرتنى نجدا

ويتسع الرمز ليشمل الأرض بكل ما عليها : التراب والمطر والزهر، بل والخيام أيضا فهى رمز السكن والأهل والدفء والحنان ، إنه شاعر لم يعن بتشبيه اسمه فى ذاكرة الرواة ، كفاه أن زفر حنينه واستراح[1] :

حنينا إلى أرض كأن ترابها

إذا أمطرت ، عود مسك وعنبر

بلاد كأن الأقحوان بروضه

ونور الأقاحى ، وشى برد محبر

أحنّ إلى أرض الحجاز وساجتى

طرف يقصر

١٣١ بشار فصل رقيق فى ديوان الشعر العربى سوف ينظم عبر العصر الإسلامى الأول ، طلائعه فى عهد النبوة والراشدين ، ثم يستوى دانى القطاف عبر العهد الأموى ، وتتفرع منه دوحة عظيمة باسقة تظلل سماء الشعر الأندلسى ، فصار يجمع إلى رقة المعانى ورقة اللغة أدوات فنية ناضجة تعتمد الرمز والإيحاء ، مستلهمة رموزها من الطبيعة بكل عناصرها الناطقة والصامتة من طيور مختلفة ونباتات

(١) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

متباينة وجبال ووديان وأنهار وبحار ورياح وأمطار ، وتتوزع أغراضه بين الغزل العذرى الشفيف وبين الحنين إلى الوطن .

(٥) مقطوعات وقصائد فى أوزان مختلفة : يرى الدكتور شوقى ضيف أن أغلب شعر الفتوح مقطوعات قصيرة موجزة ، ارتجلها المجاهدون بلا روية أو أناة ليصوروا أحداث القتال ذات الايقاع السريع ، فهى أشبه بتقارير وبلاغات تصدر من الميدان حاملة أخبار المعركة ، موجزة أحوال المحاربين ، مبشرة بالنصر ، مطمئنة الأهل والوطن . كما يرى الأستاذ الكبير أن الرجز هو الوزن الغالب على شعر الفتوح ؛ لأنه اللحن المناسب للمواقف السريعة والأحداث المتتابعة (١).

وفى تصورى أن هاتين الملاحظتين تصدقان على بعض شعر الفتوح وليس كله ، لأن فيه قصائد طوال كما ضم أوزانا متنوعة غير الرجز .

أما الشعر الإسلامى عامة ، فقد حوى كل الأنواع بين مقطوعات قصار، وقصائد متوسطة ، وأخرى طويلة، وكذا سبح الشعراء المسلمون فى أغلب البحور الشعرية ونظموا فى جميع الأوزان حسب تنوع الأغراض وتعدد المواقف .

(٦) العاطفة والانفعال : من المسلم به أن توهج الشعور وإثارة

---

(١) راجع : العصر الإسلامى : ص ٦٦/٦٧

العاطفة وحدة الانفعال ، كل ذلك هو العامل الأول والأهم فى انبثاق الشعر وتفجر ينابيعه .

وإذا كانت الحمية والصراع فى الحروب القبلية من أهم عوامل ازدهار الشعر الجاهلى ، حتى أن مكة لم تعرف شعراء لأنها ظلت بمنأى عن الصراع إلى بعث الرسول ﷺ ، فكيف وقد غدت المعارك القبلية الصغيرة حروبا طويلة متعددة مع أمم أخرى ، وكيف وقد صار الصراع عقائديا بين الإيمان والكفر ، بين التوحيد والشرك ؟

وكيف إذا أصبح النصر باعلاء كلمة الحق ونشر لواء الدين أو الاستشهاد فى سبيل الله هو الغاية ؟

كيف يكون الشعر إذا توافرت له كل تلك البواعث المثيرة ؟ ثم توافرت له بالاضافة لها بواعث الحنين والاغتراب برحيل المجاهدين ، وبواعث الدهشة والانبهار بالبلاد الجديدة المفتوحة ؟

وكيف إذا عمرت قلوب الشعراء مع كل ذلك بالدين القيم ، وسمت نفوسهم بالقيم الأخلاقية والانسانية الرفيعة ؟ لقد تفاعل ذلك جميعه ليولد موهبة الشعر لدى عشرات أو مئات، لم يكونوا من محترفى الشعر، بل كانوا يقولونه فى لحظات من الانفعال القوى لفقد عزيز أو اغترابه فى الفتوح، أو لحنين جارف إلى موطنهم الأول ، أو للفخر بفروسيتهم وبلائهم فى حروب الفتح »(١) .

---

(١) فى الشعر الإسلامى والأموى : ص ٤٩/٥٠

ومن هنا تناثرت عشرات ، بل مئات المقطوعات فى كتب السير والمغازى والتاريخ والأدب لشعراء لم يعرفوا قبلها بالشعر ، وإنما حفزهم إلى نظمه وقدة انفعال لموقف عنيف عبر معركة أو سفرة ولذلك جاءت أشعار هؤلاء المقلين تلقائية فى مقطوعات قصيرة أقرب ما تكون فى لغتها وصورها إلى طبيعة الحياة العصرية حينذاك ، مع شىء من التوتر الذى يستدعيه الانفعال القوى .

وخلاصة ما يقال فى مجال البناء الفنى للقصيدة :

(١) ظل المطلع كما كان فى الجاهلية : إما غزلياً صريحاً أو يمزج الغزل بالأطلال ، أو بالخمر ، لكن أكثر القصائد يدخل الشاعر الإسلامى إلى غرضه دون مقدمات .

(٢) أول ما يلحظ من تطور فى البناء الفنى للقصيدة الإسلامية ظهور وحدة الدلالة ووحدة التجربة الشعورية فى عدد منها .

(٣) والتطور الثانى هو الإفادة من قصص القرآن الكريم ، وإن كان ذلك فى بدايته بسيطاً ومحدوداً .

(٤) اتخاذ الشاعر لأحد مظاهر الطبيعة رمزاً ، وكانت له بدايات قليلة فى الجاهلية ، لكن الإسلاميين توسعوا فيه وأحسنوا استغلال الرمز فى رسم صور فنية .

(٥) قسم كبير من شعر الفتوح صيغ فى مقطوعات قصيرة وبعضه على وزن الرجز ، لكن الشعر الإسلامى عامة ضم القصائد بأطوال مختلفة ومن أوزان متعددة .

(٦) توافرت للشعر الإسلامى بواعث جديدة من التجارب الشعورية والأحاسيس المتنوعة والانفعالات القوية .

المصادر والمراجع

١ ـــ القرآن الكريم :

٢ ـــ الأدب الأموى : د. محمد فتوح أحمد ، مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٩٠ .

٣ ـــ الأدب فى عصر النبوة والراشدين ، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٩٩

٤ ـــ الأغانى : أبو الفرج الاصفهانى : تحقيق إبراهيم الإبيارى ، دار الشعب ١٩٦٩

٥ ـــ البيان والتبيين : أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ ، تحقيق : فوزى عطوى ، دار صعب ، بيروت ١٩٦٨

٦ ـــ تاريخ الشعر العربى فى العصر الاسلامى : د. يوسف خليف ، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٩٠

٧ ـــ تاريخ الشعر العربى ج ١ : د. محمد عبدالعزيز الكفراوى ، نهضة مصر ١٩٨٨

٨ ـــ التطور والتجديد فى الشعر الأموى : د. شوقى ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧

٩ ـــ التأثير النفسى للاسلام فى الشعر : د. عبدالرحيم زلط ، دار الفكر العربى

١٠ ـــ جرير ونقائضه مع شعراء عصره : د. محمد عبدالعزيز الكفراوى
نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٨
١١ ـــ حديث الأربعاء ج ٢ د. طـــه حسين ، دار المعارف ،
القاهرة ، ١٩٥٨
١٢ ـــ الحطيئة ، البدوى المحترف : د. درويش الجندى ، نهضة مصر
القاهرة ١٩٦٢
١٣ ـــ الحيوان : أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح :
عبدالسلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ١٩٨٨
١٤ ـــ دراسات فى أدب ونصوص العصر الاسلامى : د. محمد عبدالقادر
أحمد ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٨٦
١٥ ـــ دراسات فى الأدب العربى : د. عمر الطيب الساسى ، دار
الشروق ، جدة ١٩٧٨
١٦ ـــ ديوان حسان بن ثابت : تحقيق د: سيد حنفى حسنين ،
دار المعارف ١٩٨٧
١٧ ـــ ديوان الأعشى الكبير : شرح وتعليق : د. محمد حسين ،
مكتبة الآداب ، القاهرة
١٨ ـــ شرح التبريزى على «بانت سعاد» تحقيق وتعليق : د. عبدالرحيم
الجمل مكتبة الآداب ، القاهرة ١٩٩٠

١٩ ـــ شعر عصر صدر الاسلام : د. محمد عادل الهاشمي ، مكتبة المنار ، الأردن ١٩٨٦

٢٠ ـــ الشعر والشعراء أبو محمد عبدالله بن قتيبه ، تحقيق : د. مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٥

٢١ ـــ العصر الإسلامي : د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، ١٩٨٩

٢٢ ـــ العقد الفريد شهاب الدين بن عبد ربه ، تقديم خليل شرف الدين ، دار مكتبة الهلال بيروت

٢٣ ـــ في الأدب الاسلامي والأموي : د. ابراهيم عبدالرحمن ، مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٩٠

٢٤ ـــ في الشعر الاسلامي والأموي : د. عبدالقادر القط ، مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٩٠

٢٥ ـــ فيض القدير على شرح الجامع الصغير : العلامة المناوي ، دار احياء السنة المحمدية ، القاهرة

٢٦ ـــ قرامة في الأدب الاسلامي والأموي : د. محمد عبدالعزيز الموافي ، مطبعة التقدم ، القاهرة ١٩٨٣

٢٧ ـــ قضايا الشعر في النقد العربي : د. ابراهيم عبدالرحمن ، مكتبة الشباب القاهرة ، ١٩٧٧

٢٨ ـــ لسان العرب : ابن منظور ، دار المعارف ، القاهرة

٢٩ ـــ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقي
مؤسسة جمال للنشر ، بيروت
٣٠ ـــ مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون ، دار الشعب بالقاهرة
٣١ ـــ من قيثارة الشعر العربي : د. فتحي محمد أبو عيسى ، دار
المعارف ١٩٨٠
٣٢ ـــ نحو أدب اسلامي معاصر : أسامة يوسف شهاب ، دار البشير
عمان ١٩٨٥
٣٣ ـــ نظرات في الشعر الاسلامي والأموي : ظافر القاسمي ، دار
النفائس ، بيروت ١٩٧٧

كتب أخرى للمؤلفة

١ ـــ الطائر المهاجر : شعر ط١ دار الشروق جدة ـــ ١٩٨٦ ، ط٢ مكتب الآداب القاهرة ١٩٩١

٢ ـــ وكذا الرجال : شعر مكتبة ذات النطاقين القاهرة ١٩٩٠

٣ ـــ الشعر الجاهلي بين القبلية والذاتية: دراسة أدبية مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٩١

٤ ـــ قراءة نقدية في الشعر العربي المعاصر نقد أدبي : مكتبة الآداب القاهرة ١٩٩٢

٥ ـــ في القصة القصيرة والرواية : نقد أدبي : مكتبة الآداب ١٩٩٢

٦ ـــ الإسلام والشعر دراسه موضوعيه : مكتبة الآداب ١٩٩٢

تحت الطبع

١ ـــ شاعر عبقري « شفيق المعلوف » دراسة أدبية

٢ ـــ الحنين والغربة في شعر المهجر : دراسة أدبيه

٣ ـــ في صحبة شعراء المهجر : نقد أدبي

٤ ـــ الشعر وهموم الإنسان المعاصر : نقد أدبي

٥ ـــ قبل فوات الوقت : شعر

رقم الإيداع ١٩٩٢/٧١٦٥
الترقيم الدولي I.S.B.N· 977-241-063-

الإسلام والشعر

● ليس في القرآن الكريم تحريم لنظم الشعر، أو تحقير له، إلا حين يتنكب طريق الهدى، ويحيد عن الخلق والدين.

● لا يعادي القرآن الشعراء ولا يذمهم، إلا إذا انحرفوا عن الحق وأساؤا للغير.

● تقف السنة المشرفة مع القرآن، فترحب بالشعر منبعثاً من النفس المؤمنة الخيرة، وتفسح مكاناً للشعراء إن اتجهوا بما يفضب الله ورسوله.

● سار الراشدون والصحابة على نهج القرآن والسنة فتركوا الشعراء أحراراً ما لم يحاربوا الله ورسوله ويؤذوا المسلمين، وأخذوهم بالشدة حماية للدين والمجتمع.

● الإسلام - ممثلاً في القرآن والسنة وسلوك التابعين والخلفاء - رحب بالشعر فناً إنسانياً مهذباً، يدعو للخير والحق والجمال.

● لا يمكن لدعوة عالمية ترسم منهاج حياة جديدة للإنسانية أن تسقط الشعر من حسابها وسيلة للدعوة وسلاحاً للجهاد ومجالاً للإبداع الفني.

الثمن ٥ جنيهات

To: www.al-mostafa.com